عناية الدعوة الإسلامية بالتنمية البشرية الحقيقية

أ.د/ هاشم عبد الظاهر إبراهيم
أستاذ الدعوة والثقافة الإسلامية
وعميد كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بقنا
بجامعة الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ﷺ وعلى آله وصحبه ومن ولاد واتبع هداه وبعد ،،

فإن موضوع التنمية – وقد شاع الحديث عنه ولاكته الألسنة وتناولته الأقلام ذات الاتجاهات المختلفة – كل يريد أن يقدم ما يفيد فى هذا المجال فى إطار الإجتهاد البشرى ومهما قدح المفكرون أذهانهم فإن ما يصلون إليه لن يحقق المطلوب أو يصل إلى الغاية فإنهم بحكم طبيعتهم الإنسانية ، وإمكاناتهم البشرية العقلية المحدودة بحكم هذه الطبيعة إن عرفوا شيئا فلابد أن تغيب عنهم أشياء ، ومن ثم كان من اللازم أن يدخل مفكرو الإسلام الميدان ، ويستدعوا الأصلين الشريفين – كتاب الله وسنة رسوله ﷺ لينهلوا منهما ويقدموا ما يفيد البشرية فى هذا المجال وكل مجال. تحقيقا لهذا وتلبية لنداء الحق – جل وعلا (أدع إلى سبيل ربك)[1] فإننا سنحاول أن نعرض ما يتيسر لنا من توجيهات الإسلام ومبادئه فى هذا الصدد ، وأقرر سلفاً بأن ما أقدمه يمثل – فقط – قطرة فى بحر الإسلام الزاخر فى كل المجالات وأرجو الله

---

[1] سورة النحل من الآية : ١٢٥ .

تعالى أن يجعلها قطرة مباركة نافعة بأذن الله لتسلط أضواء على عناية الدعوة الإسلامية بالتنمية البشرية الحقيقة .

هذا وقد عمدت إلى تقييد التنمية ووصفها بالحقيقية لأن التنمية – أى تنمية –فى نظرى وفى نظر العقلاء والمنصفين – مالم تهتد بالإسلام فلن تكون حقيقة ولن تحقق لأصحابها السعادة والسكينة فى الدنيا ناهيك عن عدم تحقيقها فى الآخرة لأن " ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين "[١] وأما فى الدنيا فكما قال الله – تعالى– (ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى ." [٢]

إذن فإننا لا نبالغ ولا نلقى الكلام على عواهنه حين تعنون للبحث مقررين بأن " التنمية الحقيقية لا تكون إلا فى ظل الإسلام "

تمهيد :-

عندما نتحدث عن التنمية البشرية لن يكون حديثنا فى نطاق محدود يرتبط فقط بوطننا الغالى مصر الذى نعتز به ونفديه بأرواحنا ، وإنما يتسع الحديث ليشمل البشرية كلها بما فيهم شعب مصر بالدرجة الأولى ، وهذه الشمولية والعالمية التى نعنيها مبعثها الدائرة التى يدور فيها البحث ، وهى دائرة الإسلام الذى هو دعوة عالمية .[٣] ومن لوازم عالميته اهتمامه بالبشر جميعا بدون ما تمييز بين جنس أو لون أو لسان ...

---

[1] سورة آل عمران الآية : ٨٥ .

[2] سورة طه الآية : ١٢٤ .

[3] الأدلة على هذه العالمية من القرآن والسنة كثيرة نجد من القرآن بقول الله تعالى (قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً ... ") سورة الأعراف من الآية ١٥٨ ومن السنة قوله صلى الله عليه وسلم من حديث يبين فيه خصائص أفضليته على الأنبياء والتى ذكر منها (... وكان كل يبعث إلى قومه خاصة ويبعث إلى الناس عامة) تفسير القرطبى ٧ / ٨٦ ، ط دار الكتب المصرية – وتفسير الكثير ٥١٢/٦ ، ط دار الشعب .

فإذا ما تحدثنا عما يتعلق بالتنمية البشرية وما تيسر لنا من ذكر شئ مما جاء به الإسلام فى هذا المجال ، فإننا لا نقصد جماعة محدودة أو جنساً معيناً أو قوماً مخصوصين ، وإنما نقصد الناس فى أى زمان وفى أى مكان موجهين الدعوة إليهم أن يراعوا هذه التعاليم إذا أرادوا التنمية على وجهها الحقيقى الذى إذا تحقق كانت الحياة الطيبة فى الدنيا ومجازاتهم بأحسن ما كانوا يعملون فى الأخرى والتعبير القرآنى واضح فى الدلالة على هذا حيث يقول الله تعالى " ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون"[١]

التنمية تعنى التربية وزناً ومعنى :

بادئ ذى بدء نقرر بأن التنمية هى التربية فكلاهما شئ واحد ، ولهذا عوف بعض الباحثين التربية بأنها " تنمية الإنسان فى الجوانب الآتية :

الروحى ، والبيولوجى ، والعقلى ، والمعرفى ، والانفعالى ، والعاطفى ، والسلوكى ، والاخلاقى ، والاجتماعى فى إطار بعد مركزى هو الإيمان بالله وبوجدانيته للوصول بالإنسان إلى الكمال ضمن مجتمع متضامن قائم على قيم ثابتة .

مفهوم التنمية البشرية [٢] وجوانبها :

التنمية : [٣] حركة اجتماعية بزخم حضارى تجاه زيادة درجة تحقق غايات الجماعة .

---

[1] سورة النحل : الآية ٩٧ .

[2] نقل د/ ميلاد حنا فى مقاله الاسبوعى بجريدة الأهرام المصرية بتاريخ ١٩٩٩/٩/١٣ بعنوان (غدا أكثر اشراقا) نقل فى حديثه عن التنمية البشرية بأن د/ محبوب الحق المفكر الاقتصادى الباكستانى صاحب الفضل فى ابتكار عبارة (التنمية البشرية) فأردنا أن ننوه بهذا .

[3] مجلة المسلم المعاصر عدد ٨٦ السنة الثانية والعشرون ، م / ممدوح عبدالحميد فهمى بعنوان البيئة الثقافية للصناعة والتقنية .

وهى تساوى التربية وزنا ومعنى ، إذا كانت التربية معناها لغويا الإزديـــاد والنمو ، فإن التنمية معناها كذلك لغة وإذا كان مفهوم التنميـــة ماســبق أن ذكرنـــا (حركة اجتماعية .. ألخ) فإن التربية عملية تنشئة اجتماعية للفـــرد تـــهتم بجميـــع جوانب شخصيته وتوازن بينها ، وتحدث بين قواها المختلفة التكامل الـــذى يجعلـــها شخصية سوية متزنة قادرة على التكيف مع محيطها الاجتماعى والطبيعـــى متـــأثرة ومؤثرة فيه [١].

وبناءً على هذا ، فإن العناية بالتربية والقيام بها على منهج الإســـلام يثمـــر تنمية حقيقة فى جميع المجالات فى مجال الاقتصاد ، وفى مجال الاجتماع وفى مجـــال التعليم .. الخ وهذا يحدونا إلى أن نلقى الضوء على جوانب التنمية البشرية .

الإنسان مركز التنمية وموضوعها :-

يسلم الباحثون – على اختلاف مذاهبهم واتجاهاتـــهم تســـليما مطلقـــاً بـــأن الإنسان – أى إنسان – على هذه الأرض يمثل ثروة ورأس مال بغير نظير وأن كـــل استثمار فى تنمية هذا الإنسان وتجويد كفاءته وتحسين نوعيته " الثقافية " بـــالتعليم والتدريب والتغذية ، والرعاية الصحية والاجتماعية والثقافية ، والمسكن والملبـــس الملائمين ،والممارسة للديمقراطية ، وتنشيط البحث العلمى لزيـــادة التعـــرف علـــى طبيعته . هو أفضل استثمار ، بل شرط نجاح أى اســـتثمار آخـــر زراعيـــاً كـــان أو صناعيا أو تجارياً فى هذا الوجود . [٢]

ولما كان موضوع التنمية هو الإنسان وجوانبـــها التعليميـــة والاقتصاديـــة والصحية والنفسية ... الخ تتعلق به بكل ما يحمل هذا الإنسان من خصائص وصفات وبكل دوافعه وطبائعه ونوازعه وغرائز ولما كان وسيلة التنمية هو الإنسان أيضـــاً – فهو الهدف وهو الوسيلة معا – أقول لما كان الأمر كذلك ؛ كـــانت عمليـــة التنميـــة ليست سهلة ومن ثم فإنها تتطلب جهداً متميزاً وصبراً مقتدياً بأولى العزم من الرســـل

---

[1] أنظر أسس التربية الإسلامية فى السنة النبوية ص ٢٣ ، ٣٥ ، د/ عبدالحميد الصبر الزناتى .

[2] أنظر أهداف المدارس الإسلامية ، د / سعيد إسماعيل على ص ١١١ مجلة المسلم المعاصر ص ٦٣ .

وعزيمة ماضية ، وتوكلا على الله -تعالى – بعد هذا كله فى إدراك النتائج وتحقيق الأهداف ولعل رسل الله تعالى – وعلى رأسهم أولو العزم من الرسل السابقين على بعثة سيدنا محمد ﷺ أقول : لعل هؤلاء الرسل قد كلفوا بتربية الإنسان – التى هى التنمية البشرية الحقيقية فصبروا واجتهدوا ، وصابروا وتحملوا فكانوا جديرين بأن يأمر الله رسوله محمدا ﷺ – بأن يقتدى بهم حيث قال تعالى (فاصبر كما صبروا ولو العزم من الرسل)[١] .

" إن هذه العملية عملية مديدة تتطلب إدراكا دقيقا لمشاق الطريق ومراجعة دائبه لوسائل العمل ومناهجه وإدانة جريئة لوسائل وأدوات التوصيل عند تخلف النتائج وتقويما مستمرا لكل مرحله وتعديلا وتطويرا فى ضوء المشاهدات الميدانية والتغييرات الاجتماعية ، ذلك أن المشكلة التى يعانى منها العملية التربوية – التى هى عملية التنمية – وجميع العمليات التغييرية – المشكلة أن الدنيا تتطور وتتغير ، والمشكلات تتبدل ونحن نصر على التعامل مع كل المتغيرات بالوسائل نفسها وكأن الوسائل وهى اجتهادات بشرية – اكتسبت صفة القدسية سواء كان ذلك بسبب نجاحها فى حقبة معينة أو بغفلة انسان الذى نقل القدسية من القيم والأهداف أو من النصوص الواردة فى الكتاب والسنة ، أو معرفة الوحى إلى الاجتهاد البشرى ، أو المعرفة البشرية"[٢] .

والآن سنعرض على قدر ما يتسع البحث – لأهم الآليات التى احتوت عليها الدعوة الإسلامية لتحقيق التنمية البشرية ونبادر فنقول : إن هذه الآليات تتمثل فى القيم الإسلامية الأساسية والفرعية وقبل أن نتحدث عن هذه القيم نشير – فى عجالة – إلى أهمية هذه القيم للتنمية البشرية .

أهمية القيم الإسلامية للتنمية البشرية :-

لعل من نافلة القول أن نقرر بأن القيم الإسلامية تحتل مركزا أساسيا فى توجيه العملية التنموية ، والوصول بها إلى ما ينبغى أن يكون وبخاصة حين نعلم

---

[1] الاحقاف الآية : ٣٥.

[2] أنظر القيم الإسلامية التربوية والمجتمع المعاصر ص ٢٤، ٢٥ من تقدير لعمر عبيد حسنه – بتصرف يسر .

بأن هذه القيم النابعة من الدين الذى هو فطرة مركوزة فى النفس وهنا أجدنى بحاجة إلى الإجابة عن سؤال يفرض نفسه ويتعلق بأفضل الأهداف التى ينبغى أن تتمحور حولها عملية تربية أو تنمية الأجيال أو التنمية البشرية عموما) والسؤال هو : ما أفضل الأهداف التى تتمحور حولها عملية التنمية أو التربية ؟

وقد كفانا مئونة البحث عن الإجابة على هذا السؤال أحد الباحثين حين أجاب – فيما أرى – إجابة شافية .

ونظراً لأهمية الموضوع فسأنقل ما كتبه تعليقاً أو نقلاً عن غيره مع طوله:-

قال :■ [1] أثابه الله – بعد أن عرض السؤال سالف الذكر :-

(أن الجواب عن هذا السؤال يتم على مستويين :-

١- المستوى الأول :■ هو الذى تتجلى لنا من خلاله فاعلية الأهداف ، بغض النظر عن طبيعة الشحنات ، وبتعبير أدق ، القيم التى تتغذى عليها تلك الأهداف ، هذا يعطى لنا الحق أن نذهب مع من يقول بأن " أفضل الأهداف عند الفرد يعتمد أساسا على النظام القيمى الذى تعتنقه الجماعة ؛ حينئذ يتحرك الفرد بمالديه من قدرات يسهم مع أفراد المجتمع الآخرين المتوافقين معه لتحقيق مصالح الجماعة وإثراء جوانب حياتها المتعددة .." [2]

وهذا الأمر يبدو لنا على حقيقته عندما نلاحظ على الدقة الآليات التى تجرى بموجبها عملية البناء الحضارى داخل مجتمع كالمجتمع الغربى مثلا ، فهو قد آمن بفلسفة معينة للحياة ، وحدد لنفسه أهدافه على ضوئها ، وأن مبادئ تلك الفلسفة التى تشبع بها أفراد المجتمع لتمتد بجذورها لتتغلغل فى أعماق التاريخ والحضارة

---

[1] أنظر عبد المجيد بن مسعود فى كتابه " القيم الإسلامية والتربوية والمجتمع المعاصر " ص ٤٩ وما بعدها . ط وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية – قطر كتاب الأمة رقم ٦٧ رمضان سنة ١٤١٩ السنة الثامنة عشر .

[2] المرجع السابق نقلا عن : محمد على المرصفى " من المبادئ التربوية فى الإسلام ص ١٣ .

الغربية ، تستمد منها العناصر والقوى التى تشكل عـــامل رفـــع وتحريـــك لعجلـــة الحضارة الغربية .

إن المبادئ المذكورة بغض النظر عن مدى تعبيرهـــا عـــن حقيقـــة الكـــون والإنسان والحياة وبغض النظر عن شمولها لمتطلبات الوجود الإنسانى أو قصورهـــا عن ذلك الشمول ، فإنها تمارس فعلها على كل حال فى تحريك دواليب الحضارة إلـــى حين – كما يفهمها الأفراد الذين ينصهرون فى بوتقتها .

ويواصل الباحث [1] حديثه عن :-

١- المستوى الثانى : فيقول : هو المستوى الذى تكون فيه الأهداف محـــددة بإحكام على ضوء الفلسفة الحقه التى تنطلق مـــع العلـــم الشـــامل بحقيقـــة الكـــون والإنسان والحياة ، الفلسفة التى تهتم لا بجانب أو ببعض الجوانب وتضرب ببعضـــها الآخر عرض الحائط ؛ تنظر إلى الإنسان ككل لا تتجزأ أبعاده ، ولن يملك هذا الشمول والإحاطة الارؤية تنبثق من دين الإسلام ، الذى نزله خالق الكون والإنسان وتولـــى حفظه من كل تحريف أو تبديل وتحقيق الأهداف – كمـــا أشـــرنا – والكـــلام مـــازال للباحث – تحقيق الأهداف لابد أن يمر من خلال نسق من القيم يتوخى فيها الشـــمول والتكامل . نسق من القيم تتكامل فيه النواحى العقدية مع النواحى المنهجية وهذه مع النواحى الأخلاقية أن نظاما بهذه الخصائص ، هو الكفيل بإعداد الإنسان الذى يحمـــل الأمانة ، أمانة الاستخلاف ، على وعى وبصيرة ، ويمضى بها حتى نهاية المطـــاف دون تذبذب أو تردد .

إن ذلك النسق القيمى الربانى ، هو وحده القادر علـــى اســـتخراج طاقـــات الإنسان المكنونة ، وتحويلها إلى خير عميم ، يعم البشرية كلها وينشر فيها إشـــعاعه ، ولا ينحصر فى أطر ضيقة محدودة ، إنه وحده القادر على بعض الأمل فى البشرية بعد أن أصابها وخيم عليها الوجوم واليأس ، وإن محور الخلافة الذى تكتـــل جـــهود التربية حوله ، هو من الواقعية بمكان ، حيث لا يدع مطلباً من مطالب الذات البشرية

---

[1] القيم الإسلامية التربوية " المجتمع المعاصر " ص ٥٠ وما بعدها ..

تنمو به وتتفتق مواهبها وملكاتها وتنطلق إلى أرحب الافاق لا يدع مطلباً إلا واستجاب له دون تحجير ولا تعسير ، وفى إطار ضوابط تحفظ للإنسان كرامته .

وإذا أدركنا الطاقة العظيمة والهائلة التى يزود بها نظام القيم التربوية الإسلامية الإنسان ، والآفاق الروحيه التى يفتحها أمامه لتنمية الحياة وضبط سيرورة الحضارة البشرية فى النطاق السليم فلا تزيغ ولا تتيه إذا أدركنا ذلك ؛ أدركنا بالمقابل فداحة الجرم وعظم الخيانة التى ارتكبها فى حق المجتمع الإنسانى ، أولئك الذين جعلوا من أنفسهم أدوات مسخرة فى يد الاستعمار – عن وعى أو غير وعى – إنه إخراج الأمة الإسلامية من مسارها الصحيح ، والزج بها فى خضم متلاطم تقوده تياراته إلى قرار سحيق " .

" لقد أراد هؤلاء ، الذين يحسبون فى قائمة أهل الفكر والنظر – وماساهم منه فى شئ أرادوا أن تكون عملية التغيير منطلقة من فلسفات غربية كل الغربة عن المجال النفسى والروحى والعقلى للأفراد الذين يستهدفهم التغيير ، ويقوم على اكتافهم فى الوقت ذاته فكان هؤلاء بطبيعة دورهم أشبه بمن يريد أن يطلق صاروخا من قاعدة خالية من شروط الدفع والإرسال " لقد ذهلوا عن أسرار الحضارة وغاب عن وعيهم فى خضم ذلك الذهول أن الفعل الحضارى ليس فعلا ترقيعيا تلفيقيا هجينا ، حتى يستعير عناصره ومقوماته من خارج المجال الروحى لامه من الأمم ، فما بالك بأمه أبت المشيئة الألهية أن تيسر لها الانطلاق فى غير ظل رسالة الإسلام [١] ، أشعارا لها بأن نهضتها ومبعثها من مرقدها إنما يكون برجوعه إلى نابيع دينها الصافية نغسل بها ماران عليها من أدران الثقافات المسموحة ، فتخرج طاهرة معافاة يتدفق نورها وأشعاعها فى كل اتجاه [٢] لتقول للعالم : " إن الإنسان الكامل هو إنسان أخلاق بل هو الاخلاق قبل كل شئ ، فالشرف والفضيلة والكرامة ،والشهامة والشجاعة والتضحية ، والنزاهة والصدق والاستقامة فى المعاملة والتواضع والوقوف إلى جانب الحق ، والصبر عند الشدائد ، وتحمل المسئولية والاعتماد على

---

[١] يذكر فى هذا الصدد القول المأثور عن سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه " كنا أذلاء فأعزنا الله بالإسلام فمهما طلبنا العزة الإسلام أذلنا الله " أو كما قال .

[٢] المرجع السابق .

النفس هى بعض الاخلاق التى يجب أن نغرسها فى نفوس ابنائنا مهتمين كذلك بالاخلاق العلمية كالتدقيق والضبط فى القول والعمل ، وبالاخلاق الاجتماعية كحب النظام والتعاون واليقة المتبادلة ورعاية عواطف الآخرين ، والشعور معهم وحب خدمة المجموع والمحافظة على المواعيد..[١] .

ولسنا نشك لحظة واحدة فى أن القادر على تخليص البشرية من شقوتها وتزويدها بمنهج الحياة الصالح هى هذه الأمة الإسلامية .

ومن هنا بات من اللازم أن تبادر هذه الأمة لاجيالها الشابة التى تتوزعها لحظات التمرد والحيرة وتتعطش لمنهج يعطيها الأمن ويلبى مطامحها ويردم الهوة التى حفرتها الحضارة بين روح الإنسان وجسده فعرضته بذلك للتمزق والضياع "[٢].

اهتمام الغرب بقيم هى من صميم الإسلام لاسهامها فى نهضتهم وتنميتهم :-

هذا ولم يكن حديثنا عن القيم الإسلامية وارتباط التنمية بها وقدرتها على تشكيل مجتمع سعيد متوازن نظيف قادر على العطاء – لم يكن هذا الحديث من باب الرجم بالغيب أو التعصب البعيد عن الواقع كلا بل هو حديث ودعوى يؤيدها الواقع الذى حمل غيرنا – من خلال حشود الخبرات الحضارية التى يمارسها ويكتشفها على أن يشهد لمصداقية المفردات الإسلامية هذه المفردات كما يذكر الدكتور / عماد خليل [٣] المؤكده فى الحياة اليومية فى دائرة العلاقات الاجتماعية فى جانبها الوضئ مما غير الحضارة الغربية فى هذا الجانب – هذه المفردات التى تشكل مراكز الثقل فى نسيج الممارسات العامة ، والتى غدت لكثرة تكرارها والتزامها الفا يتفق عليه المجتمع ، ولا يكاد يجرؤ أحد على تخطيه الالحقة الاشمئزاز والاحتقار .

---

(١) نفس المرجع نقلا عن " فلسفة تربوية متجددة لعالم عربى متجدد ص ٤٨ .

(٢) نفس المرجع نقلا عن " أنور الجندى " أطار إسلامى للفكر المعاصر ص ٢٧٠ بتصرف .

(٣) فى كتابه " رؤية إسلامية فى قضايا معاصرة ص ٩٩ بشئ من التصرف .

وللأسف فإن هذه المفردات يقول المفكر سالف الذكر [١] التى تمثل قدراً من الضوء للحياة الاجتماعية الغربية هى نفسها التى كان هذا الدين قد منحنا إياها وألزمنا بها وهى نفسها التى نقضناها فى عصور تخلفنا وانحطاطنا عروة عروة ، حتى بلغت حياتنا الاجتماعية القعر من الحضيض الذى لا تحسدنا عليه ، أشد الجماعات والشعوب تفككا وتخلفا .

" ولعل من السذاجة القول : بأن الغربيين ، قد اقتبسوا هذه المفردات المتألقة من تجربة الحياة الإسلامية عبر التاريخ وأن كان بعضها فيما تؤكده الدراسات الحضارية المقارنة والشواهد اللغوية مستمداً من هذه التجربة لكن السياق العام للخبرة يصعب معه التحقق من بينه قاطعة ، والأهم من ذلك أن الحضارة الغربية وهى تجتاز طريقها الطويل – تكتشف ، وتؤسس وتنمّى ، وتنفذ مفردات السلوك الاجتماعى وعن طريق التجربة والخطأ ، ومن خلال الاحتكاك بمطالب الواقع البشرى ، يرسب أو ينفى بعضها ، ويظل بعضها الآخر قديرا على البقاء بسبب من " نجاحه " المستمد من " المنفعة " أو المردود الإيجابى ، الذى حققه – ولا يزال – للحياة الاجتماعية هناك " بمعنى أن الاكتشافات الحضارى للمفردات ، فى صميم الخبرة الاجتماعية يجئ لكى يؤكد بلسان الحال ، ما سبق أن وضعه هذا الدين بين يدى المنتمين إليه ودعاهم إلى الالتزام به والحرص عليه إذا أرادوا أن تكون حياتهم إسلامية حقا . هذا ولنا عودة – إن شاء الله – لهذا المفكر الكبير سالف الذكر عند حديثنا عن الآليات التى تتمثل فى القيم الإسلامية – والتى استخدمها الإسلام لتحقيق التنمية البشرية لننقل مزيدا مما كتبه فى هذا الصدد لأنه بحق يستحق أن يكتب ويثبت لاشتماله على فوائد جمة ونظرة ثاقبة وتحليل عميق لمبادئ الإسلام .

---

[١] المرجع السابق وقد نبه الكاتب إلى الإطلاع على ما كتبته " سنجر يدهونكه " فى كتابها (شمس الله تسطع على الغرب) ترجمة فاروق بيضون وكمال الدسوقى المكتب التجارى بيروت ١٩٦٤م ففى هذا الكتاب وفاء بهذا الموضوع .

أمثلة من الواقع للغربيين تدل على استمساكهم بدينهم لعلها تحفز المسلمين على أن يزدادوا تمسكا بدينهم :-

وسنجتزئ بأمثلة تتعلق بدول كبرى تبدو فى الظاهر علمانيه – أو كما يحسبها الاغرار من المسلمين العلمانيين الذين يريدون أن يتجردوا من الدين ولا يبقى لهم إلا أسمه أقول سنجتزئ بأمثلة تتعلق بدول كبرى تبدو فى الظاهر أنها لا تهتم بالدين وأنه ليس له أى أثر فى حياتهم فإذا بنا من خلال هذه الأمثلة تلمس أن للدين أثراً فى أهم جوانب حياتهم وهو الجانب السياسى والاجتماعى الأمر الذى جعل أحد الباحثين يعنون لبحث وهو الذى نقتبس منه هذه الأمثلة – يعنون هذا البحث بهذا التساؤل :- هل تحولت العلمانية الغربية إلى وهم تاريخى ؟ مع وضع علامتى الاستفهام التقريرى والتعجب وكأنه يجيب بالشق الآخر من العنوان الذى هو " الدين والسياسة فى الواقع الغربى " [١] .

سنقتبس من هذا البحث كما قلت – بعض هذه الأمثلة وسنركز على أمريكا وبريطانيا وفرنسا وألمانيا .

ففى أمريكا – قد يبدو أن التعدد الدينى ليس له أى أثر على عملية التجانس الاجتماعى والاندماج القومى إلا أن الحقيقة غير ذلك وخلو بطاقات الهوية وجوازات السفر من أية بيانات تتعلق بالديانة ليس معناه أن الشعور القومى وحده هو أساسى التكامل السياسى وأن التعدد الدينى لا أثر له بهذا الخصوص إن الاستقراء الدقيق للواقع الأمريكى يؤكد أن الدين بواقعه المتمثل فى تعدد الجماعات الدينية بعقائدها وطوائفها له آثاره البارزة على عملية الوحدة السياسية بل تتفوق على آثار التعدد العنصرى ، ويزداد الأمر خطورة عندما يرتبط التعدد العنصرى بالتعدد الدينى ، ومن ثم فإن الحاجز الذى أقامته أمركيا ويتمثل فى التعديل الدستورى بين الكنيسة – هذا الحاجز لم ينجح فى تحقيق التجانس التام بين الشعب الأمريكى . [٢]

---

[1] مجلة المنار الجديد عدد ٥ رمضان ١٤/٩ د/ عبد العزيز صقر .

[2] راجع الدين والسياسة فى الواقع الغربى المعاصر ص ٨٥ وما بعدها د/ عبد العزيز صقر مجلة المنار الجديد عدد ٥

" بل أن الأثر الشديد للدين فى الأفراد ليبدو بصورة واضحة عندما نرى بعض الجماعات الدينية تصر على ممارسة السلوك الذى تفرضه عليها عقيدتها التى تؤمن بها حتى لو خالف ذلك الدستور الأمريكى أو حال دون اندماجها التام فى الشعب الأمريكى وعلى سبيل المثال فقد رفض جماعة الأصدقاء أو لكويكر Quakers حمل السلاح والمشاركة فى الحروب من منطلق عقيدتها الداعية إلى عقيدة السلام ونبذ العنف ، كما يرفض المسلمون الأمريكيون المشاركة فى أى حرب يخوضها الجيش الأمريكى ضد إحدى الدول الإسلامية هذا الرفض يتعارض مع اليمين الذى يحلفه كل طالب للجنسية الأمريكية بأن [١] يؤيد ويدافع عن دستور الولايات المتحدة الأمريكية وقوانينها ضد كل الأعداء الخارجين والمحليين " ولذلك رفضت المحكمة العليا مثل هذه المواقف وأعلنت فى عام سنة ١٩٢٩م . " أن القوانين الأمريكية لا تسمح بمنح حقوق الجنسية للأفراد الذين لا يقسمون بأنهم سيحملون السلاح دفاعا عن الولايات المتحدة .

مثل آخر : يرفض جماعة " شهداء الرب " يهوه " يرفض أتباعها تقديم التحية للعلم الأمريكى زاعمين أن هذه التحية لا تعدو أن تكون نوعا من الوثنية والشرك ترفضه تعالم المسيح ، وقد تعرض أبناؤهم للفصل من المدارس بسبب ذلك عام ١٩٤٠م .

وقد نظرت المحكمة العليا فى البداية إصرار هذه الجماعات على ممارسة السلوك الذى تفرضه عليهم عقيدتهم بأنه تميز بالحدة والتطرف ويتعارض مع مقتضيات الحياة الاجتماعية إلا أنها أمام إصرار هذه الجماعات على الحفاظ على هويتها الخاصة فى ضوء التعاليم الدينية عادت لتؤكد حق هذه الجماعات وغيرها فى ممارسة السلوك الدينى الذى قد يتعارض مع ما تقتضيه عوامل التجانس والانسجام الاجتماعى ففى عام ١٩٤٦م . عارضت المحكمة موقفها السابق من مسألة حمل السلاح حين أقرت لياقة شخص للتجنس بالجنسية الأمريكية على الرغم من أنه لم يكن راغبا فى حمل السلام دفاعا عن الولايات المتحدة لأسباب دينيه .

---

[١] المرجع السابق .

وفى عام ١٩٤٨م سمحت المحكمة للذين لا يرغبون فـــى الاشـــتراك فـــى الحرب لأسباب دينية بترك الخدمة وبعد ثلاث سنوات تم تعديل هذا القـــانون بحيـــث أضحى على الذين لا يرغبون فى الخدمة العسكرية بسبب عقيدتهم الدينية أن يلحقـوا بالخدمة المدنية فى الأعمال الحكومية بنفس مدة تجنيدهم .

" وفى عام ١٩٤٣م " أتيح للمحكمة أن تعيد النظر فى موقفها مـــن مشـــكلة تحية العلم فقررت " أن حرية المخالفة ليست قاصرة على المسائل الثانويـــة التافهـــة والافانها لا تعدو حينئذ أن تكون شبحاً هزيلاً لحرية اسمية وهمية وإنما يتأكد الوجود الحقيقى لهذه الحرية حين تقع فى مجال حيوى يمس النظام السائد فى صميمة " [١].

ويعقب الباحث سالف الذكر [٢] بعد أن ينقل أمثلة تدل على مدى تأثير الديـــن فى الحياة الأمريكية وبخاصة السياسية فيقول : إن هذا الاعتراف بالتعدديه الدينيـــة وما تفضى به لا يجب إنكارها أو اعتبارها تهديداً للاندماج الاجتماعى ، امتد ليشـــمل العديد من مظاهر الحياة السياسية فى الولايـــات المتحـــدة فالاختيـــارات السياســـية والسلوك الانتخابى والتفضيل الحزبى للمواطن الأمريكى يرتبط إلى حد بعيد بانتمائـــه إلى جماعة دينية معينه وهناك ارتباط تقديرى – يقول نفس المفكر – [٣] هناك ارتبـــاط بين البروتستانت والحزب الجمهورى وبين الكاثوليك والحزب الديمقراطى فى بعـــض الولايات والمدن فإن الانقسام بين الجمهوريين والديمقراطيين هو فى أساسه نفـــس الانقسام بين البروتستانت والكاثوليك وفى النهاية وبعد أن ينقل بالإضافة إلى ما فـــى أمريكا من تأثير الدين على المجتمع واختيار الرئيس إلى حد حـــدوث ارتبـــاط بيـــن

---

(1) المرجع السابق .

(2) نفس المرجع .

(3) المرجع نفسه .

منصب الرئاسة فى أمريكا واعتناق عقيدة الأغلبية باستثناء لبعض الحالات [١] وبعد أن ينقل إيضاحا للدين من تأثير فى فرنسا [٢] وبريطانيا وألمانيا ، وغيرها .

وبريطانيا [٣] وألمانيا ، وبيرو وغيرها -بعد ذلك يختتم بحثـــه بقولـــه " أن جميع هذه الشواهد تبرهن على أن التعدد الدينى فى ظل الدولـــة القوميـــة الغربيـــة

---

[١] باستثناء انتخابات سنة ١٩٦٠م وباستثناء حالة كينيدى الذى قدم للبروتستانت الضمانات الكافية لتقديم الولاء القومى على الولاء البابوى ولكى يتبع ضميره أكثر من الكنيسة (المرجع السابق) .

[٢] فى فرنسا ينقل الباحث – ايضا صورا من تأثير الدين والعقيدة على الفرنسيين فى بحثه السابق ثم يعقب علـــى ذلك بقوله " والخلاصة أن الفرنسيين لا يزالون يرفضون التعدد الدينى وينظرون إلى الكنيسة باعتبارها الديـــن القومى والمقصود بالدين القومى عندما ترى أمه ما مثلها الدينية فى ضوء تقاليدها من زاوية توجيهها الخـــاص يصير دينها قوميا ينظرون إلى الكثلكة باعتبارها الدين القومى وأساس الوحدة والتكامل وإلى الاقليات الدينية باعتبارها تهديدا للوحدة والوفاق ومصدر للصراع وعدم الاستقرار وقد فشلت استراتيجية بوتقة الصـــهر فى إفقاد الأقلية الإسلامية هويتها المميزة وفى استيعابها داخل الجماعة الكاثوليكية المسيطرة فى إطـــار المجتمـــع القومى ولم تنجح مبادئ الحرية والإخاء والمساواة والتسامح الدينى فى تحقيق عملية الاستيعاب أو الاندمـــاج والتكامل وانماطهم السلوكية وطرائق معيشتهم الأمر الذى خلق لدى الفرنسيين وعيا عنصريا ودينيا وأعـــاد إلى فرنسا تلك الروح العامة التى تغلب عليها العداوة للاقليات الدينية لدرجة أن وزارة الداخلية فى فرنســـا أصدرت فى أبريل ١٩٩٥ تمنع تداول كتاب الحلال والحرام فى الإسلام للدكتور القرضاوى لأنه منـــاقض لقوانين والقيم الفرنسية .

[٣] وفى بريطانيا لم يكن الأيمان بالمذاهب البروتستانتية فى الحقيقة سوى صورة من صور التمرد على الاســـتعمار الكاثوليكى وأدوات الوحدة والتكامل فى مواجهه السيطرة الأجنبية فقد اعتنق سكان الجزيـــرة المذاهـــب البرتستانتية نكاية فى الفرنسيين والاسباق والكاثوليك والمعروف أن الإنجليز كانوا قد اعتنقوا الكاثوليكية فى نهاية القرن السادس الميلادى ألا أنهم ارتدوا عنها واعتنقوا المذهب البروتستانتى المنشق على عقيدة الكـــاثوليك الرومان فى القرن السادس عشر ختفا على الاستباد الفرنسى الاسبانى ونفورا من الكاثوليكية التى يدين بهـــا الفرنسيون والاسبان ومن جانب اخر اعتنق الاسكتلنديون هذا الدين الجديد فى منتصف القرن السادس عشر تعبيرا أيضا عن تمردهم على السيطرة الفرنسية " الكاثوليكية " وهكذا ادمج الدين فى الصراع القومـــى فى بريطانيا وارتبطت نشاة والبرتستانتية فيها بقضية الحرية والتمرد على النظم الملكية فى فرنسا وأسبانيا فكـــانت الوحدة الدينية هى أساس الوحدة السياسية .. وهكذا تحولت البروتستانتية الى دين قومى لسكان الجزيـــرة ومثل الفرنسيين فان القوميين الانجلتر ربطوا أيضا بين إنجلترا والبرتستانتية حتى قال أحدهم " من المســـتحيل أن تطيل الحديث مع كاثوليكى دن ان نشعر بوجود حاجز لايمكن التغلب علية .لعل هذا يفســـير المســـالة الايرلندية الناشية عن رغبة الايرلنديين الجنوبين " = ="الكاثوليك" فى اقامه دولة ايرلندية كاثوليكية مســـتقلة

يقضى فى بعض الحالات – إلى التفتت والانقسام ويفضى فى حالات أخرى إلى الصراع والصدام وهو فى جميع الحالات يؤثر فى عملية الوفاق أو الاندماج الاجتماعى الأمر الذى يؤكد فى النهاية ان عملية التجانس والوفاق والاندماج والوحدة لا تعتمد فى النموذج القومى الغربى – على عامل الشعور القومى وحده بمعنى مجرد الانتماء للدولة ولكنها ترتبط أيضا وأساسا – بالدين بما يعنيه ذلك من اضمحلال مفهوم الدولة القومية بمد لولها الغربى المعاصر وضرورة مواجهه الفقه الغربى لهذا التطور وذلك بصياغة تعريف جديد للدولة العربية المعاصرة يتجاوز مفهوم الدولة القومية وتعترف بدور الدين فى تحقيق التجانس والاندماج فيعكس بذلك حقيقة الواقع ويعبر عن حقيقة الإدراك السياسى الغربى فى هذه اللحظة . ونكتفى بهذا القدر الذى أسهبنا فى نقله لنعرف القارئ بمدى تأثير الدين ولو كان عقيدة فاسدة – على صاحبة ناهيك عن أن يكون دين الإسلام الذى رضيه الله الناس . والذى لا تتحقق تنمية ولا زيادة اوتقدم حقيقى فى أى مجال الاعلى أساسه ولن تترك هذه النقطة الابعد ان نضيف إلى ما يؤكدها من شهادة لبعض الباحثين من غير المسلمين وكما قال القائل: ومناقب شهد العدو بفضلها ... والفضل ما شهدت له الأعداء .

عن التاج البريطانى البروتستانتى كما فعلت ايرلندا الجنوبية وعدم رغبة الانجليز والايرلنديين الشماليين فى استقلال ايرلندا الشمالية عن بريطانيا

(١) وفى ألمانيا يبدو الدين رباطا قويا يجمع بين الألمان الذين ارتبطوا باللوثرية نسبة الى " لوثر " واعتبروها دينهم الخاص الذى يعبر عن روحهم القومية وتوحدت المسيحية اللوثرية حتى فى عهد هتلر نفسه والذى سعى إلى الربط بين القومية والعقيدة المسيحية اللوثرية وإلى تأسيس العنصرية الألمانية على الدين أصبح المسيحى وحده هو الألمانى الحقيقى ، أما أصحاب الأديان الأخرى السماوية وغير السماوية كالمن تم أو اليهودى فلا يمكن استيعابهم فى الأمة الألمانية ؛ لأن المسيحية الوثرية – كما يعتقد الألمان – هى وحدها الديانة المتوافقة مع القومية الألمانية أى أحد أهم مقومات الخوية القومية الألمانية . ولعل هذا يفسر كل ما له صلة بنشاطات اليمين المتطرف ضد الأجانب فى ألمانيا وما اثبت من سوء معاملة الشرطة الألمانية ذاتها لهؤلاء الأجانب وما يدعيه بعض الكتاب الألمان من أن الإسلام يهدد الغرب حاضرا ومستقبلا .

من شهادات الغربيين لدور الإسلام فى التنمية البشرية وصياغة مستقبل الإنسانية :

تجئ هذه الشهادات كاعتراف حر مدعم بالقناعات العقلية وموثق بالمزيد من الرؤى المقارنة كما يتضمنه هذا الدين من قيم وخصائص تميزه وفعالة يمكن أن تمارس دورها فى صياغة مستقبل الإنسان أو فيما يتعلق بالتنمية البشرية بكل أبعادها .

واليك بعض النماذج من هذه الشهادات :-

يقول وكلامى آرثر :- "لو أحسن عرض الإسلام على الناس لامكن به حل كافة المشكلات ولأمكن تلبية الحاجات الاجتماعية والروحية والسياسية للذين يعيشون فى ظل الرأسمالية والشيوعية على السواء .

فقد فشل هذان النظامان فى حل مشكلات الإنسان ... أما الإسلام فسوف يقدم السلام للأشقياء والأمل والهدى للحيارى والضالين وهكذا فالإسلام لدية اعظم الإمكانات لتحدى هذا العالم وتعبئة طاقات الإنسان لتحقيق على مستوى من الإنتاج والكفاية [١].

وهو كلام فى منتهى الوضوح للدلالة على أنه لا حل لمشكلات الناس ولا طريق إلى تنمية حقيقية وهى التى تتحقق بتعبئة طاقات الإنسان لتحقيق أعلى مستوى من الإنتاج والكفاية لا طريق إلى ذلك إلا عن طريق الإسلام وشهادة الرجل كما قلنا من الوضوح بحيث لا تحتاج إلى تعليق ووجه أهميتها أنها صادرة من أهل الغرب الذين لا يعرفون مجاملة ولا تملقا وبخاصة – عندما يتحدثون عن الإسلام ونكتفى فى هذا الصدد بما ذكره "فيلويز " [٢] ضابط البحرية البريطانى الذى انتمى إلى الإسلام عن البيانات التى نشرتها الصحف والتى تفيد أن الفلاسفة والكتاب فى

---

[1] مجلة المسلم المعاصر عدد ٨٥ قراءة فى الفكر الغربى الإسلام والمستقبل د/ عماد الدين خليل ص ١٦٥ وما بعدها نقلا عن رجال ونساء أسلموا .

[2] المرجع السابق .

الغرب يزعمون أن الأديان المعاصرة قد أصبحت باليه عتيقة ولابد من التخلص منها ويعقب على هذا بأنه إنما يبين مقدار التشاؤم الذى تعانى منه جمهرة الكتاب الغربيين بسبب يلاقونه من تعقيدات وغموض فى دياناتهم النصرانية لكن هؤلاء يرتكبون خطأ فالإسلام الذى يمثل الإجابة الكاملة الوحيدة ولا يزال قائماً ، وعلى استعداد لأن يكون البديل ، وهو جاهز لذلك .

بعد هذه العجالة التى ألمحنا من خلالها إلى جدارة الإسلام بأن يحقق للبشر ما يتطلعون إليه فى هذا المجال وفى كل مجال ، وقدرته على أن يحل مشاكل الناس بشهادة باحثين غربيين منصفين حملهم إنصافهم وتجردهم على أن يهتدوا إلى هذا الدين القيم ، وأن يقدموا هذه الشهادات التى نقلنا طرفاً منها – بعد هذا نأتى إلى الحديث عن عناية الدعوة الإسلامية بالتنمية البشرية ونبدأ بالحديث عن جوانبها أو أبعادها .

جوانب التنمية البشرية :-

للتنمية البشرية أكثر من جانب ، فهناك الجانب المادى ، وهناك الجانب الروحى وقد لا يتسع المجال لأن نسهب فى بيان هذين البعدين ، ومن ثم فإننا نتوخى الاختصار الذى نرجو أن يكون مفيداً .

التنمية البشرية فى جانبها المادى :-

كل من يطالع توجيهات الإسلام فيما يتعلق بالإنسان نجد أنه موضع عناية الخالق جلا وعلا – فهو يريده إنسانا صالحا بكل ما تعنى الكلمة فإذا كان قد خلق الأرض له وأنشأه منها واستعمره فيها ؛ فإنه يريده أن يقوم بهذه المهمة على خير وجه ليحقق الخلافة عنه –جل وعلا – ومعنى ذلك أنه لابد أن يكون الإنسان صالحا، ولن يتحقق صلاحه إلا بإيمانه بالله وبرسالاته ، فإذا كفر فلا خير فيه لأنه يكون بذلك قد بلغ قمة الفساد ، وإذا كان كذلك فإن الله لن يرضى عنه إنساناً يعمر الأرض ويصلح فيها ، لأنه لن يكون مؤهلاً لذلك ومن ثم فإنه يأخذه أخذ عزيز مقتدر ،

ويستبدل به غيره (وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثـــم لا يكونـــوا أمثـــالكم) [١] ويريد من أوليائه واتباعه أن يعملوا على إخلاء الأرض ، من هؤلاء المفسدين حتـــى لا تفسد الأرض بفسادهم وإفسادهم أو على الأقل محاصرتهم ودعوتهم إلى الإصـــلاح فإن لم يستجيبوا عوقبوا ووجهوا مواجهة حاسمة فى إطار هذا تبين أن الإسلام ينظر إلى التنمية البشرية فى جانبها المادى – فيما يتعلق بالكم – نظرة تقوم على اعتبـــار الكيف بالدرجة الأولى وإن كان الكم أى العدد الكثير –مطلوباً فإنه يطلب فـــى إطـــار القدرة على تحقيق الصلاح والاستقامة فى الكون ، لأنه بذلك يكـــون المباهـــاة يـــوم القيامة [٢] بناءً على هذا نقول : بأن الإسلام يدعو إلى التنمية البشرية فـــى الجـــانب المادى وتتحدد دعوته فيما يلى:-

---

[١] سورة محمد الآية

[٢] والحديث الذى يقول فيه رسول الله ﷺ " توشك أن تتداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها قـــالوا : أومن قلة نحن يومئذ يارسول الله قال : بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل ينزع الله المهابة منكـــم من قلوب أعدائكم ويلقى فى قلوبكم الوهن : قالوا : وما الوهن يا رسول الله ؟ قال : حب الدنيا وكراهيـــة الموت . رواه أحمد فى مسنده وأبو داود فى سننه ، هذا الحديث واضح الدلالة على أن المعول عليه مســـتوى الأمة الذى يشرف من حيث القوة والنهضة وعلو الشأن سواء كان العدد قليلا أم كثيرا . بيد أنه إذا اجتمعت الكثرة مع القوة وتوفر الإمكانيات والتفوق فإن هذا ما يريده الإسلام ، وإلا فإن القلة مع حياة كريمة وتقـــدم وهضة أفضل بل وألزم وأوجب وليت المسلمين يفهمون دينهم على حقيقته فيقدمون نموذجا متكاملا للبشـــرية . فلا يكون دينهم عبارة عن إيمان فقط مجرد عن العمل والأخذ بالأسباب ، فيكون التواكل وليـــس التوكـــل الذى يحث عليه القرآن فى أكثر من موضع وتؤكده السنة وتبينه أيضا – أقول : الكتاب يختلف عن المنتســـبين إلى أديان سماوية – أهل الكتاب – الذين انغمسوا فى المادة والأخذ بالأسباب إلى أذقانهم وفتنوا بها ، واصبحوا فى الحقيقة – كافرين بالغيب غير مطمئنين لما فى يد الله والمسلمون غدوا يأخذون ببعض الدين مـــن أدعـــاء الإيمان وإهمال الجزء الآخر وهو الأخذ بالأسباب فوصلوا إلى ما وصلوا إليه من انحطاط وقد حسر العالم الكثـــير بانحطاط المسلمين كما قرر ذلك العالم النحرير – أكرمه الله الشيخ أبو الحسن الندوى الذى كتب مؤلفا بهـــذا العنوان " ماذا حسر العالم بانحطاط المسلمين" وأدع المجال للإمام الراحل الشيخ محمد الغزالى – رحمـــة الله – ليقول كلمته فى هذا المجال حيث أراها ضرورية ومناسبة ومن ثم سأثبتها كما هى مكتفيا بالتمهيد الذى قدمتـــه بين يديها . قال رحمه الله وجزل ثوابه : الإيمان بالغيب ليس معناه القصور أو الغباوة فى عالم الشهادة فإنا احترم المنطق المادى ولكنى فى الوقت نفسه أعلم أن الله على كل شئ قدير وأن خالق الأســـباب لا تحكمـــه هـــذه الأسباب وأن زمام الأمور يستحيل أن يفلت من يد الله بل ما يقع فى عالم المادة لو حكيناه لجنس آخـــر مـــن المخلوقات لاستغربه وأنكره كيف تكون الحية الواحدة سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة ؟ كيـــف يتحـــول السبخ إلى قطن للكسوة وأرز للمعدة وتفاح للمتعة وزهر ؟ كيف بارك الله فى هذه الأرض فآوتنا أحياء ووارتنا

أولاً : من ناحية التكاثر البشرى شريطة أن يكون مصحوباً بالقوة والعزة – ولا تكون الكثرة سبباً للضعف والفقر ، والمذلة ، والهوان ، وفى نظرى ونظر العقلاء بأن مشكلة المسلمين ليست كثرة العدد ، وإنما هى مشكلة التواكل وعدم الجدية فى العمل وإحسانه ، وإتقانه ، فإذا قلنا الكثرة غير الصالحة لا يحبذها الإسلام فليس معنى هذا أننا ندعو إلى تنظيم النسل بسبب عدم الثقة فى وعد الله بضمان الرزق لكل دابة فى الأرض حيث قال " وما من دابة فى الأرض إلا وعلى الله رزقها [1] فلو كان هذا – أعنى عدم الثقة فى وعد الله لا قدر الله – لكان معناه الخروج عن دائرة الإيمان والعياذ بالله ، ولكنا كمن ينتسبون إلى الإيمان وهم فى الحقيقة لا يعرفون شيئاً عن الله – تعالى – كأهل الكتاب الذين طال عليهم الأمد فقست قلوبهم ونريد تقليدهم

= أمواتا ثم منها النشور : إن الكافرين بالله أقرب إلى الدواب حين ينكرون منطق الإيمان ويندهون بالمؤمنين . وقد سمعتهم يتساءلون : كيف يطعم الله الزيادة المطردة فى السكان فقلت كما يطعم الأصل يطعم الفرع : قالوا : خيرات الأرض محدودة قلت : بل إنكاركم أنتم محدودة ولو فكرتم ونشطتم لو سمعت الأرض أضعاف فكم عددا وبهذه المناسبة أحى السيد الرئيس محمد حسنى مبارك على تفكيره السديد للخروج من الوادى الضيق وإحيائه الأودية المتروكة " توشكى وشرق العوينات وغيرها فجزاه الله خيراً وسدد خطاه – وهكذا ينبغى أن يكون المسلمون أمما وأفرادا – ويواصل الشيخ الجليل رحمه الله – حديثه قائلا : الذى ظهر لى بعد طول تأمل أن الإيمان مريض مرضا عضالا عندما أوصى تشرشل بأن يحرق بعد موته قلت فى نفسى هل هذا سلوك رجل يؤمن بالمسيح ؟ لقد عاش ومات ما يخطر الله بفكره وقرأت كلاماً – يقول الشيخ الغزالى للأمير فليب زوج ملكه انجلترا يقول فيه : " أنك لا تستطيع إدامة قطيع من الغنم باكثر ما تستطيع إطعامه إن المحافظة على البيئة تستدعى المحافظة على توازن الاجناس وكل فدان من الأرض يستصلح للزراعة يعنى هى نقصان أن تحرم منه الحيوانات البرية ماذا يريد الأمير أن يقول ؟ يريد الأمير أن يقول ؟ يريد أن يقول : إن إبادة الأجناس الأدنى شرط لبقاء الأجناس الأعلى وهذا معنى قوله لو كتب لى أن أولد مرة أخرى فإنى أتمنى أن أعود على شكل "فيروس " قاتل لأسهم فى حل مشكلة زيادة السكان والمعروف أن الأمير فيليب ويؤمن بنحلة هندية تنظم الطبيعة وتقدس الحيوان وتطلق على الأرض الآمة "جاما " أن علاقته بالنصرانية كعلاقة تشرشل بها والواقع أن عدداً من علماء الاقتصاد والفلسفة يحملون أسماء مسيحية ولا يرون للعالم خالقا اسمه الله والمقلق أن عددا من المقلدين العميان يسيرون وراءهم فى بلادنا ويخرجهم أشد الإحراج أن تحدثهم عن المعاملات الإسلامية وأصول الاجتماع ، والاقتصاد ، والتربية ، والتشريع التى يحفل بها الإسلام ويموج بها تراثة الضخم إنك تناديهم من مكان بعيد ، إنهم يعيشون بيننا ولكن قلوبهم فى الغرب الاستعمارى .

[1] راجع جريدة الشعب المصرية عمود " هذا ديننا " سورة هود الآية ٦ .

حتى لو دخلوا حجر ضب خرب لدخلناه [١] ، وإن كنت أرى أنهم فـــى هـــذه القضية " قضية النسل " يولونها الاهتمام الشديد من ناحية الكـــم فيتواصـــون بالتناسل بلا حدود ويحاولون بما استطاعوا أن يصرفونا عن التنمية العدديـــة حتى عند من عندهم الإمكانات [٢] والخلاصة أن الإسلام يرضى للمســـلم فـــى هذا المجال أن يكون واعياً فإذا حرص على أن يستكثر من الذرية ، فعليـــه أن يعمل ويجتهد ويأخذ بالأسباب ليكون قوياً ، فإذا لم يكن كذلـــك وراح المســـلم يركز – فقط – على التناسل مدعياً التوكل على الله بـــدون أن يفـــهم حقيقـــة التوكل والتى تقضى بأن يأخذ بالأسباب ويعمل ويجتهد ، فليعلم بـــأن هـــذا لا يرضاه الإسلام وأولى به أن ينأى عن هذه الرغبة الجامحة فى الإكثـــار مـــن النسل الذى يكون مصيره الضعف والهوان .

التنمية المادية تعنى العناية بالإنسان بدنياً وعقلياً :

فمن الناحية البدنية والعقلية :فى إيجاز شديد :

يضع الإسلام الأسس الفعالة لسلامة بدنه من الأسقام والأمراض وتنشـــيطه بالتربية الرياضية والعمل .

والحفاظ عليه من كل ما يؤذيه أو يوهن قواه أو يعرقـــل نمـــوه وتزويـــده بالمعارف والمهارات التى ترفع من كفاءته الحياتية ، فالإسلام يطلق لعقـــل الإنســـان العنان ليفكر ويتعلم ويبحث ويهتدى ويكشف ويخترع ويؤلـــف ويمـــلأ قلبـــه بحـــب الإنسانية والعمل لخيرها وتبقى روحه بالعبادات والقيم الفاضلة [٣].

---

[1] فى حديث الرسول صلى الله عليه وسلم " لتتبعن سنن من قبلكم – الحديث .

[2] والجدير بالذكر أن بعض الدول الغربية – كما نقلت – بعض وسائل الإعلام ترصد مكافأة للأســـرة التى تتفوق على غيرها فى عدد أفرادها كفرنسا وغيرها .

[3] مجلة المسلم المعاصر عدد ٦٣ ، ص ١١٣ ، أهداف المدارس الإسلامية ، د/ سعيد إسماعيل على نقلا عن الإسلام والاقتصـــاد ، ص ٤٩ ، د/ عبدالهادى النجار .

التنمية فى جانبها المادى فى منظور الإسلام طريق إلي الله وليس انحرافاً عنه ، ومن ثم فإنها تمثل الجانب الروحى :-

يقول الله تعالى – (قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العاليمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين .

إن هذه الآية الكريمة تحث البشر على الخضوع لله تعالى فى كل أحوالهم وتشير إلى أن مجرى الحياة أو أسلوب الحياة الذى يحوز على قبول الله يعتبر هدفاً يتضمن فى إطار العالم المادى وأن أشياء مثل بناء الحياة المادية وتحسينها ، والتمتع بها (التنمية المادية) تعد فى حد ذاتها وسائل للحصول على المتع التى وهبها لنا الله ، وأن الإنعزال عن الحياة والإنسحاب منها يعد إثماً أدانه الله فى القرآن وأدانه رسوله صلى الله عليه وسلم فى السنة وطبقاً لذلك نجد أنه بالرغم من أن هدف الحياة هو النجاح فى الآخرة فإنه ليس من الممكن تحقيق مثل ذلك النجاح عن طريق تجاهل كل شئ فى الحياة وبمقتضى ذلك فإن المبادئ الأخلاقية الخاصة ترى فى الثروة وسيلة للإشباع الإنسانى والزيادة من قدرات الإنسان التى تؤدى إلى تحقيق تقرب أفضل إلى الله .

فى ظل تطبيق مبادئ الإسلام ينتفى وجود مثلث التخلف : الجهل والفقر والمرض :

حارب الإسلام هذا المثلث الذى على أساسه صنفت الأمم ورتبت درجات من ناحية التقدم فجاء ترتيب عالمنا الذى ننتمى إليه فى درجة متأخرة وأطلق عليه العالم الثالث أو الدول النامية وهو تصنيف أساسه القوة المادية والمال والثروة وقبل ذلك العلم الذى يترتب عليه ارتفاع المستوى الصحى ، ودول العالم الأول ، والعالم الثانى حازوا قصب السبق فى هذه المجالات بلا ريب مما رشحهم لأن يتبوأوا هذه المراتب وإن كان لنا تحفظ على هذا التقييم سنتحدث عنه بعد ذلك إذا اتسع المجال .

أهم الآليات والضمانات الإسلامية لتحقيق التنمية مما ينتفى معه مثلث التخلف :-

من الآليات الأساسية لتحقيق التنمية البشرية العمل على تنمية وعى الفرد بقضايا الأمة وهمومها :

لا يكفى لتنمية المجتمع ونهضته أن يتبنى قطاع منه سواء كان فى مجال الدين وغيره – الدعوة إلى ذلك والتوجيه ليكون خطاباً تجريدياً فقط أقول : لا يكفى هذا وإنما ينبغى أن يضم إلى الخطاب والكلام العمل والتنفيذ ، فإن الإسلام دين لا يقف عند حد القول بل يطلب اقتران القول بالعمل ويجرم من يقتصر على القول فقط (يا أيها الذين أمنوا لم تقولون ما لاتفعلون ، كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون) [١].

ولا يهدف الإسلام من العمل أن يحقق نفعاً لصاحبه وكفى بل يحث المسلم كواجب – ومن اللحظة التى يلتزم فيها بتعاليم الدين الإسلامى – يحثه على أن يتكافل مع المسلمين الآخرين وأن يتعاون معهم وأن يتبنى همومهم ومشاكلهم وأن يسعى معهم إلى حلها قدر استطاعته .. وهذا التعاون والتكافل والتبنى المتبادل للمشاكل والهموم هو الذى يفضى بالمؤمنين إلى حالة الجسد الواحد المتماسك القوى التى عبر عنها رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بقوله " مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى . " [٢] .

---

[1] سورة الصف : الآية رقم ٢ .

[2] رواه البخارى فى كتاب الأدب ومسلم فى كتاب البر / ٦٦ ، ط الحلبى ، ومسند أحمد ٤/ ٢٧٠ .

عدم تبنى قضايا الأمة وهمومها يعنى التكذيب بالدين :

ينبغى أن يعى كل فرد أن مساعدة الناس والاسهام فى تنمية المجتمع وحل مشاكله والنهوض به من صميم الإيمان وأن السلبية والأنانية وعدم الاهتمام بمشاكل الآخرين ومساعدتهم بقدر الاستطاعة ولو بالكلمة الطيبة – من التكذيب بالدين .

ولقد جاءت سورة تنص على هذا تسمى "سورة الماعون" حيث قال جلّ شأنه " أرأيت الذى يكذب بالدين فذلك الذى يدع اليتيم ولا يحض على طعام المسكين فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون الذين يراءون ويمنعون الماعون " [١] .

إن طبيعة الإسلام هى التى رشحته أن يتبوأ المقام الأحمد من بين الأديان الأخرى من حيث إنه ليس مجرد اعتقادات فقط وإنما هو عقيدة وعمل ومنهج ، حياة متكامل وجاء ليحل مكان مناهج الحياة السائدة ، ففعل ذلك ولكن بعد محاولات عزلة من واقع الحياة إلى واقع الأذهان عادت البشرية لتقف من جديد على حافة الردى " .

إنه من سنة الله ؛ ألا تعالج المشكلات الواقعة إلا بحقائق تقع تقابلها وتغيرها ، وإذا أراد العاملون للإسلام اليوم إنقاذ البشرية بالإسلام ، فعليهم أن ينطلقوا من أن يدرك كل فرد طبيعة هذا الدين العلمية ، فلا يقتصر على الخطاب التعليمى فقط بل يقرنه بالعطاء العملى الواقعى هذا العطاء الذى هو وجه عملى للتلاحم الحقيقى وهنا ينبغى أن نذكر بأمور معينة :-

الأمر الأول [٢] : إن أي فرد حين يطلب منه أن يلتحم بالناس ويتبنى همومهم وآلامهم وآمالهم لا ينبغى ان يستهدف تحقيق هدف شخصي يتمثل فى الوصول إلى الحكم ثم يتنكر لقضاياهم ، وإنما المقصود هو التقرب من الله بنفع عباده وهذا هو الذى يميز العامل بالإسلام عن غيره – لانه لا يتنتظر جزاء ولاشكورا من الناس , فمقصوده هورب الناس ... ومن ثم فهو لا يتبع ما يقدمه من خير من ولاأذى ...وان لم يشكر من لدن الناس..

---

[1] سورة الماعون .

[2] أنظر الإسلام وهموم الناس " بتصرف من ص ٣٥ وما بعدها .

الأمر الثانى :■ لابد أن يعى كل فرد أنه حين يتقدم للأخذ بيد أى فرد وينهض به ويرقى فكريا أو اقتصاديا أو اجتماعيا .. فلابد أن يشعر بشكل عملى من يتعامل معه ويلتحم به أن خلاصة الحقيقى بالإسلام , وان ذلك التفاعل مع المجتمع هو الكفيل بأن ينقذه من اكبر مازق . واعظم مشكلة يوم العرض على الله – تعالى – وهى الخسران الأكبر .

الأمر الثالث:■ لابد أن يعى كل فرد بعدالة أهميته فى مجال التنمية والإصلاح وهو البعد الإصلاحى التدافعى الذى يمنع من الإفساد فى الأرض " ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العاملين ".

فالتاريخ الإنسانى فى حقيقته لايعدو ان يكون مجموعة من التصرفات البشرية التى تتم ضمن إطار المشيئة الإلهية بالإرادة الإنسانية ... وهناك المحيط الابتدائى المتمثل فى الأرض وما عليها من زينة وما يقع فيها من أقدار الله بسطاً للرزق أم تقديراً له ، وتذليلاً للأنواء أم تصريفاً لها على أوجه العسر ، امتحانا وابتلاء (ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون)[1] لكن هذا المحيط مواجهة البشر لهذا الابتلاء ، فمنهم من يغالب ويواجه هذا الابتلاء ليصنع تاريخا جيداً وهى الأمم التى لها حضور ، فإنها تسعى – بدلا من الاستسلام للانحراف والتضامن أمام إرادة الآخرين الشريرة والرضى بالمنكرات التى تعوق التنمية الحقيقة أقول : بدلاً من الاستسلام لهذا فإنه الأمم التى لها فإن حضور تسعى لتوجيه مسار الحياة والأحياء خضوعاً لأمر الله – تعالى – " ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون " [2] .

وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً " [3] وقضية الشهادة تستدعى أن تكون الأمة حاضرة بأفرادها لتفعل الخير وتقاوم المنكر ليكون الفلاح الذى هو صنو التنمية الحقيقية ومن ثم فإننا نرى أن

---

(1) الأنبياء / ٣٥ .

(2) آل عمران الآية ١٠٤ .

(3) البقرة : ١٤٣ .

جل[٤] ما أصاب امتنا من ارتكاس وانحطاط وإخفاق فى مجالات التنمية جل ما أصابها مرده بالأساس إلى السلبية التى اتصفنا بها من جراء التحييد والتقليد والجبر- فالتحييد ، قد وقع على أمتنا منذ أعصر مبكرة بحيث أوقع فينا السيف فذبح خيارنا وقصف منسكنا بالمنجنيق ، وعولجت مشاكل فكرية وسياسية وقبل ذلك عقدية بالسنان عوض أن تعالج بمنطق اللسان فطلبت السلامة فى الصمت وترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وأسلم رجال السلطة - إلا من رحم ربك - لأهوائهم وغرائزهم فازدارت الهوة اتساعا إذ غاب مبدأ " والله لو رأينا أعوجاجا يا عمر لقومناه بحد سيوفنا " .

وفى الجانب العلمى اندرس خلق " قل يا ابن أخى ولا تحقر نفسك " وتركز واقع " صه " اخرس قاتلك الله " وأفرزت لتسميتهم كلمات مثل : الدهماء " و " الغوغاء " و " السوقة " والجهلة " والرعاع ، وغيرها فاسلم العلماء أيضاً - إلا من رحم ربك - لأنفسهم واستخذ والهذا الواقع بل عضدوه بمما رساتهم فاصبحت تجد فى مقدمة كتاب أحدهم - مثلا - تأليف الشيخ الأكبر والكبريت الأحمر - الأمام المجتهد ، العارف بالله [١] .

أو تجد " قال الشيخ الأمام " العالم ، العلامة ، الحبر الفهامة ، المحقق المدقق الحجة الحافظ ، المجتهد ، شيخ الإسلام والمسلمين ، وارث علوم سيد المرسلين جلال الدين أوحد المجتهدين [٢].فلا يبدأ القارئ القراءة ، إلا وقد أصيب بالشلل .. ويدعم ذلك فى غضون الكتاب بعبارات مثل وهذا لا يقوله مسلم [٣] وقد تجد مباشرة عبارة " ولعن الله من يقول هذا فما يقوله مسلم " [٤] واضمحلت الثقة

---

[٤] المرجع السابق بتصرف يسير .

(١) المرجع السابق نقلا عن مقدمة كتاب / محاضرة الأبرار ومعاصرة الأخيار فى الأدبيات والنواد والأخبار المحى الدين بن عربى ص١ .

[2]المرجع السابق نقلا عن الاتقان فى علوم القرآن للسيوطى ص ١١ وهذا لا ينتص من قيمة الكتاب كما ذكر من نقلنا عنه .

[3]المرجع السابق نقلا عن ابن حزم المحلى ٢٥٤/٣ حين مناقشة ابن حنيفة رحمه الله فى قوله باجزاء قراءة من قرأ القرآن بغير العربية له فى الصلاة .

[٤] نفسه ١٥٨/٣ .

الممكنة من النصيحة التى جعلها الرسول الأعظم -ﷺ- هى الدين فـــى قولـــه : (الدين النصيحة) [1] وحتى حين تقع النصيحة فإنها تعـــارض بالتجـــهيل والتفســـيق والرمى بالزندقة فى أحيان كثيرة / فانزلقت الأمة إلى غياهب التحييد فالسلبية التـــى أدت إلى التقليد الذى ، أدى بدوره إلى الكسل العقلى فالإبداعى وهو كسل وجد تكأتـــه فى عقيدة الجبر التى شاعت فى الأمة فادت إلى التواكل فكإنما يصـــدق فينـــا قـــول الشاعر .

فلـــو كـــان ســـهماً واحـــداً لا تقنيتـــه ولكنـــه ســـــهم وثـــان وثـــالث

إن رفع هذا القدر من البلاء لا يمكن أن يتم إلا بالممارسات الإيجابية التـــى ينبغى أن يضطلع بالقيام بها جميع المسلمين كل من زاويته ويحسب قدرته مما هـــو كفيل إن شاء الله بإعادة الثقة وزرع الحياة فى أوصال الأمة وتفتيـــق الإبـــداع فـــى عقول أبنائها كيما يجدد وأكيانها ويعيدوا بناء الحضارة ، وصياغة التاريخ على هدى من الله وامتثال أوامره .

من أهم ما يتعلق بآليات التنمية :-

السعى الجماعى لكافة قوى الأمة لتحقيق ذاتها :-[1]

ومعنى هذا أنه لابد من مشروع للتنمية على مستوى الأمة الإسلامية بعامـــة ووطننا العربى بخاصة ووطننا المصرى بصفة أخص هذا المشـــروع يكـــون مكونـــا عضويا من تنمية ذاتية شاملة كافة جوانب الأرتقـــاء الاجتمـــاعى ، والاقتصـــادى ، والثقافى ، ومعنى أن التنمية ذاتية أنها نتيجة سعى جماعى لكافـــة قـــوى ، الأمـــة لتحقيق ذاتها الحضارية .

---

[1] الإسلام وهموم الناس ص٣٨ نقلا عن البخارى فى كتاب الإيمان باب ٤٢ ومسلم فى كتاب الإيمان حديث رقم ٩٥ .

[1] راجع موضوع : البيئة الثقافية للصناعة والتنمية ص ٩٥ وما بعدها بتصرف يسير مجلة المسلم المعاصر العدد ص ٨٦ السنة الثانية والعشرون ١٤١٨هـــ/١٩٩٧م .

هذا المشروع له ثلاثة شروط يقوم عليها وفى المقابل ثلاثة خصوم يمكن أن تهدمه وإليك هذه الشروط وما يقابل كل شرط من نقيضه وخصمه .

الشرط الأول : هو الاستقلال الملهم للتجدد من الذات الحضارية تجاه غايات تختارها وترتضيها ووفق منطقها وقيمتها وتحيزاتها وخصوصية تكوينها البشرى ، الجيشان والزخم مصدرهما الذات وكنوز خبراتها التاريخية وثراوتها الطبيعية ورسوخ ثقتها فى أن اعتمادها على ماوهبها الله كاف ليغنيها عن التواكل على الآخرين .

وخصم هذا الشرط إذن – هو الشك فى الذات وفى صحة توجيهاتها وقوة ثراء تكوينها ؛ هذا الشك يجعلها قابلة للخضوع للهيمنة الحضارية الغربية .

الشرط الثانى :[1] يضاف إلى الشرط الأول هذا الشرط الذى يتمثل فى حرية المواطنين السياسية الذى يتيح لهم أن يمارسوا حقهم فى الشورى ، ومن ثم يقومون بواجبهم فى المشاركة وهو أعنى هذا الشرط – ضرورى فى مجال التنمية الحقيقة حيث لا يتيسر أن تتحقق الرغبة فى الابتكار والكشف العلمى إلا فى هذا المناخ ؛ فإذا غابت الحرية كان الخصم هو الاستبداد الفكرى الذى –يتبعه بالضرورة – غياب المشاركة والنتيجة الحتمية لذلك خمود قوى التجدد ، والإبداع ، والاجتهاد ، الذى أمرنا الله – تعالى – به الأمر الذى يؤثر تأثيراً سلبياً بالغاً على مشاريع التنمية.

الشرط الثالث : [2] الاعتصام بحبل الله – تعالى – المتين ، فعندما يعتصم الأفراد والأسر والعائلات ، والقبائل والشعوب العربية والإسلامية بحبل الله ، عندئذ يجعلنا الله بنعمته أخوانا فييسر لنا تحقيق التنمية على حقيقتها وفى كل جوانبها ، حين نتآزر اقتصاديا على البر ، ونتعاون حضاريا على التقوى ، ونتضامن سياسيا على العدل ، ونتواصى ثقافيا بالصبر والحق .

---

[1] المرجع السابق بتصرف .

[2] نفس المرجع .

اعتماد جماعى على النفس العربية الإسلامية التى تجمعنا ، انفتاح نفوسنا الشخصية وتحاورها فى صدق يصغى نزاعاتنا [1] ويركب تناقضاتنا فى كل يوحده إسلامنا جميعا لله وحده .

وخصم هذا الشرط – أو الذى يحل محل الوحدة والاعتصام كتقيض لابد أن يوجد أقول : الذى يحل محل الوحدة عند غيابها .

هو الاختلاف والتعصب والثغرات ، وعندما تحل هذه الداءات يكون التحلل من مواثيق العهود فى الجوار والأخوة والتضامن هو التنكر للفضل بيننا هو أن نتبع أهواءنا ، ونقطع روابط أرحامنا .

ومن آليات التنمية المهمة الجهاد الحضارى :-

بقدر ما تتحقق هذه المهمة التى هى أمانة فى أعناقنا يحاسبنا الله عليها إن قعدنا عنها أو أخرناها أقول : بقدر ما تتحقق هذه المهمة بقدر ما تكون التنمية الحقيقية ، ونبادر فنقول : إن الواقع وظروف العصر التى تتمثل فى تسارع التحولات العالمية وانهيار الاتحاد السوفيتى ، وانفراد الولايات المتحدة بالهيمنة ، وممارستها لها فى تحطيم العراق ، وتشتيت العرب – هذا الواقع المرير يجعل المسارعة فى درء الخطر الذى يأتى على التنمية من القواعد واجباً حتمياً ويجعل المهمة عاجلة جداً .

---

[1] سنأتى ونشير إلى أهمية انعدام الخلافات أو تقليلها على الأقل فى مجال التنمية والنهضة وأصدق دليل من الواقع على ذلك ما حدث للأمة العربية والإسلامية وانتكاسها فى هذا المجال ، أصدق دليل على ذلك مشكلة غزو العراق للكويت التى لا تزال آثارها إلى اليوم وستظل إلى أجل لا يعلم مداه إلا الله – تعالى – وما لم يبادر العقلاء من قادة الأمة وزعمائها إلى رأب الصدع وتحقيق المصالحة تمهيداً لتحقيق الوحدة فإن الأمة ستظل على حال من التأخر والضعف والهوان ما لم يتداركها الله تعالى – بلطفه ورحمته .

المهمة التى تتمثل فى الجهاد الحضارى تحتاج إلي مجاهدة وجهاد واجتهاد :-[1]

فأما المجاهدة فهى لما فى قلوبنا من انبهار بالغرب وإعجاب بحضارته[2] مجاهدة لما فى عقولنا فى توهم بعالمية طريق الغرب وإنسانية وبالتالى لصلاحية أسلوبه وغاياته لنا ، مجاهدة لما فى إرادتنا من قبل إلى الانقياد لتوجيهات الغرب والسعى إلى إرضائه تحتاج أيضاً إلى مجاهدة لما فى نفوسنا من اعتياد الاستضعاف لمن طغى وتجبر منا ، مجاهدة لتقاليدنا فى ممالاة المجرمين الأقوياء ومداهنة الفاسقين الأغنياء نحتاج إلى أن نجاهد ميولنا للتنازع والتحاسد والتباغض .

وأما الاجتهاد :[1] فهو من أجل إيصال الواقع الأدنى الحاضر للعرب بالمثال الأعلى للحضارة الإسلامية فى القرن الحادى والعشرين اجتهاد يتطلب فقهاً متجدداً بلغة ورموز وتحديان عصرنا ، فقهاً لكل من عقيدتنا وشريعتنا ولحاضرنا كمسلمين فى أقطار واقعية محدودة ، نحتاج إلى اجتهاد يلهم الحاضر الواقعى الإنسانى النسبى بالدين الآلهى المطلق ولا يفعل هذا إلا من عرفهما معا واحبهما معا ورغب حقا فى وصلهما ، ولنا فى رسول الله ﷺ أسوة حسنة ، فقد عرف مجتمعه فى مكة

---

[1] المرجع السابق بتصرف يسير .

(٢) ما ننكره هو الإعجاب المطلق بحضارة الغرب بدون تمييز بين ماهو نافع وبين ما هو ضار ، وهذا أعنى الإعجاب المطلق بحضارة الغرب – ماذهب إليه د/ طه حسين فى كتاب " مستقبل الثقافة فى مصر سلامه موسى فى كتابه " اليوم والغد " فقد رأى الأول " د/ طه حسين " أن نسير سيرة الأوربيين ونسلك طريقهم خيره وشره ، حلوه ومره ، ما يحب منه وما نكره ، وما يحمد منه وما يعاب ، ورأى الثانى : " سلامه موسى " أنه يجب علينا أن نخرج من آسيا والمراد بآسيا هنا الإسلام الذى جاءنا منها – رأى أنه يجب علينا أن نخرج من آسيا ونلتحق بأوروبا فأنني – يقول سلامه موسى – كلما زادت معرفتى بالشرق زادت كراهيتى له وشعورى بأنه غريب عنى وقد واجه مصطفى صادق الرافعى رحمه الله– – تعالى – وأثاره واجه هذا كله ورد على هذين المستغربين وأمثالهما إسهامهم إلى نحورهم وقد أبان عن هذا بوضوح د/ مصطفى الشكعة أكرمه الله فى كتابه " مصطفى صادق الرافعى – فمن أراد المزيد فليرجع إليه إن شاء انظر بتصرف يسير صحيفته الأهرام عدد ٤١٠٩١ لسنة ١٢٣ بتاريخ ٢٣ من صفر ١٤٢٠هـ الموافق ١٩٩٩/٦/٨م عمود " صندوق الدنيا " الأستاذ / أحمد بهجت . .

[1] راجع موضوع " البيئة الثقافية للصناعة والتقنية " ص ٦٩ وما بعدها بتصرف واختصار ، مرجع سابق .

وفى المدينة ، بتكويناتها القبلية وتقاليدها الاجتماعية وأسسها الاقتصادية ثم غير نفوس الناس وحدد مقومات المجتمع بالدين والهدى والقيم الإسلامية والرسول فعل هذا برحمة من الله فكان بالمؤمنين رؤفا رحيما .

لم يحطم كل الروابط ولم يحقر كل الأسس ، إنما حطم الأوهام والأصنام فقط وأبقى على كل خير ومعروف ووجهه إلى الفلاح الفردى والاجتماعى .

وكل جيل من أجيال المسلمين التى تلت وفاة النبى ﷺ واجه نفس التحدى تحدى إصلاح الدنيا بالدين ، بناء الحضارى بالإسلام نجحت أجيال ، وأخفقت أخرى وانعكس هذا فى فقه كل جيل للقرآن والسنة وتفسيره لهما ، وتركيزه على قضاياهما ، نجحت الأجيال التى رأت فى القرآن والسنة .

جانبيهما : الحضارى المشروع للذات الجماعية ، الشخصى المشروع للذات الفردية وأن استشارتنا فقه تلك الأجيال يمكن أن يفيدنا .

" لكن لنعلم أن الابتلاء هو لنا نحن ، والمسئولية فى بناء الحضارة الإسلامية هنا والآن مسئوليتنا نحن ولذا يجب أن نجتهد نحن فى تفسير القرآن والسنة تفسيراً يعبر عن رؤانا الحاضرة لواقعنا الحاضر بتحدياته الحاضرة وممكناته الحاضرة ، أن المعاصرة هى هذا الحضور فلا هى الانتماء إلى الأغراب المعاصرين الذين يشاركوننا الآن العصر ، ولكن يختلفون معنا فى الههنا المكان ، ولا تكون المعاصرة بالانتماء إلى الاقارب الاقدمين الذين يشاركوننا إلهنا : المكان لكن لم ولن يشاركونا فى تحديات العصر وعلمه وممكناته .

نحن مسلمى هذا الزمان – يقول المفكر اللبيب . ممدوح عبد الحميد فهمى [1] أكرمه الله يقول : نحن – مسلمى هذا الزمان – أمامنا البديل الذى لم يخفق قط ، لن تتوطن قدراتنا المتعددة التى تسهم فى التنمية بما فيها القدرات التكنولوجية – لن تتوطن إلا بأن توصل بقيمنا الإسلامية ، أن يستقر فى شغاف قلوبنا الإيمان الراسخ

---

[1] المرجع السابق ص ٩٧ بتصرف يسير .

بأن الصراط الصحيح الوحيد للنهضة والقوة والتمدن والشهود الحضارى بل يمكننا أن نقول – اختزالاً لهذه الأشياء كلها – الصراط الوحيد للتنمية الحقيقة هو صراط العزيز الحميد .

ولهذا فلا نسمى الغاية التى صراطها هو صراط الرحمن بأسماء الغرب الحداثة ، التقدم المعاصرة .. الخ ، إنما نسميها كما سماها الله فى كتابه حضارة الصدق والحق ، حضارة العلم والحكمة ، حضارة البر والتقوى ، والعدل والإحسان ، حضارة أمة المتقين .

ونكتفى بهذا القدر فى هذه النقطة " السعى الجماعى لكافة قوى الأمة لتحقيق ذاتها" نكتفى بهذا لنعود إلى الحديث عنها فى موضع لاحق من البحث – إن شاء الله – عند حديثنا عن أسباب عدم تحقيق التنمية الحقيقة إلا بالقيم الإسلامية .

ونواصل الحديث عن أهم الآليات التى اعتمدتها الدعوة الإسلامية لتحقيق التنمية البشرية .

الإيمان بالله – تعالى – أهم الآليات لتحقيق التنمية البشرية الحقيقة :-

لعل قضية الإيمان بالله[1] –تعالى– واهب القدرات ، وخالق المؤهلات والهادى إلى طريق الصواب المقدر للسعى ، المحاسب عليه ، الذى لا تخفى عليه خافية ، لعل هذه القضية هى القضية الأهم فى البناء التربوى وفى مجال التنمية الحقيقية ، وحين نقول بأهمية الإيمان بالله فى هذا المجال وفى كل مجال لا نعنى الإيمان الذى لا يتجاوز اللسان وإنما نعنى الإيمان المقرون بالفعل كما سبق إن ذكرنا –الفعل المحروس بالقيم الإسلامية فإن كان فعلا دنيويا يتصل بالتنمية فى مختلف جوانبها اقتصادية ، اجتماعية .. الخ أسهم تنمية حقيقية مباركة ، هنالك فى إطار الإيمان بالله تعالى ينمو الوازع الداخلى ويستشعر المسئولية عن الفعل وتكون الرغبة الملحة فى تخليص السلوك من الشوائب ، ومحاولة الانضباط بخلق المعرفة وأهدافها المشروعة .

---

[1] القيم الإسلامية التربوية والمجتمع المعاصر ص ١٩ بتصرف يسير .

وقفة ضرورية مع هذه القضية :-

نستهل هذه الوقفة بهذا التساؤل : ما الإيمان الذى يصنع التنمية الحقيقية ؟ ونبادر فنقول أنه الإيمان المتكامل [١] الذى يتحرك به المسلم فى مجال الحياة عابداً لربه ومجاهداً فى سبيله ، وساعياً فى الخيرات بإذنه وهذه العقيدة إيمان وثيق بالله لا يتزعزع ، وثقة تامة فى عدله ، وقضائه وتصديق شامل بكتبه ورسله ، ومعرفة يقينيه باليوم الآخر على نحو ما ورد فى القرآن الكريم والسنة المطهرة ، والإيمان الحق بالله عز وجل – لا بد من توفره على معرفة حقه بصفات الله – تعالى – وإلا ما كان إيمانا ولا ما كان معرفة بالخالق جلا جلاله .

مثال لتوضيح هذه المسألة :-

وقد ساق أحد المفكرين مثالاً عندما أثيرت مسألة الصفات فطرح السؤال : هل يعرف النصارى الخالق ؟ فأجاب بعض الحاضرين بالإيجاب ، وأجاب بعضهم الآخر بالسلب ؟ وطلب من أبى عمران قول محكم فى ذلك ، فقال مجيباً : لو سألتم عنى رجلاً هل تعرف أبا عمران ؟ فقال : رجل طويل يبيع التمر فى سوق ابن هاشم بالبصرة ، هل هذا يدل على معرفة هذا الرجل بى ؟ قالوا : لا ؛ لأنهم وصفوك بغير صفتك فقال : إذن الذين يجهلون الصفات هم جاهلون بالموصوف ، فالذى ينسب لله العجز والجهل لا يعرف الله عز وجل .

إذن : فما الإيمان بالله ؟ – فقال – لا يكفى فيه أن نؤمن بالله موجوداً [٢] وموضوع العقيدة والقول الفصل فيها من الأهمية بمكان لأنها الفارق بين الإيمان والكفر ، فلابد أن يتضح هذا الموضوع وبخاصة فى مؤسساتنا التعليمية والتربوية حتى نكون أمام شئ لا تنطلى عليه خدعة اليهود والنصارى عند قولهم بأنهم يشتركون مع المسلمين فى العقيدة والحال أن الهوة التى بيننا وبينهم كالتى بين السماء والأرض ، فشتان بين من يصف الله عز وجل بصفات الكمال كالقدرة ،

---

[1] المرجع السابق بتصرف يسير .

[2] المرجع السابق نقلا عن (من دروس التفسير للأستاذ / مصطفى حمزة ابو عمران) . بتصرف يسير.

والعلم والإرادة والحياة .. الخ وبين من ينسب لله عز وجل العجز أو ينسب إليه الولد .

من ثمار العقيدة الربانية صياغة الروح المنهجية :-

يعبر عن ذلك د/ عماد الدين خليل [١] بالنقلة المنهجية تلك التى تكتسب أهمية بالغة فى مجال البناء الحضارى وقد عبرت عن نفسها من خلال ثلاثة اتجاهات رئيسية : السببية ، القانون التاريخى منهج البحث الحسى التجريبى ولا يتسع المجال[٢] لأن نتحدث بإسهاب عن هذه الاتجاهات وحسبنا أن نشير إلى أن الإيمان على هذا النحو يسهم إسهاماً واضحاً فى عملية التنمية البشرية الحقيقية .

العلم النافع من الآليات الأساسية للتنمية البشرية الحقيقية :-

ولعلنا بهذه القيمة لا نتجاوز الحقيقة إذا قلنا بأنها إيمانية من حيث أنها ترتبط بالاتجاهات الثلاثة سالفة الذكر – السببية – القانون التاريخى – منهج البحث الحسى التجريبى أقول : لعلنا بهذه القيمة الإيمانية – قيمة العلم – لا نبالغ إذا قلنا بأنها حجر الزاوية فى عملية التنمية الحقيقية فى كل مجتمع وفى كل زمان ومكان – وقد أحسن السيد الرئيس / محمد حسنى مبارك صنعاً – أكرمه الله ووفقه – حين جعله – أمى العلم والتعليم – المشروع القومى الحضارى الذى تدخل به مصر بإذن الله – القرن الحادى والعشرين وعندما نتحدث عن العلم – أساس النهضة والتنمية فى الإسلام فإنما نقصد العلم النافع وكل إصلاح وكل نهضة فى أى مجال اقتصادى أو صحى أو ثقافى .. الخ لن تكون إلا به ونعود فنؤكد بأن العلم النافع هو الذى يعتمد بالإسلام وهو العلم الذى ينفع ولا يضر ، يبنى ولا يهدمن ، ويعمر ولا يخرب ومن ثم فإن رسول الله ﷺ دعا الله – تعالى – إن يرزقه إياه قائلا : اللهم أنى أسألك علما

---

[1] المرجع السابق بتصرف .

[2] راجع كتابه حول إعادة تشكيل العقل المسلم ص ٤٥ .

نافعاً [١] واستعاذ بالله – من علم لا ينفع فقال ﷺ " اللهم أنى أعوذ بك من علم لا ينفع"[٢] .

العلم بمعناه الشامل الذى يستهدفه الإسلام يحقق التنمية بمعناها الشامل :-

عندما يعنى الإسلام بالعلم من خلال توجيهاته الواضحة المتعددة من خلال الأصلين الشريفين كتاب الله وسنة رسوله ﷺ – فإنما يريد أن تتحقق التنمية الشاملة للبشرية فى كل المجالات ويهدف إلى إنقاذهم من كل ما يحط من شأنهم ويجلب لهم التعاسة فيجعلهم جهلاء ، فقراء مرضى – وبعبارة أخصر – يهدف الإسلام بدعوته إلى العلم إلى القضاء على مثلث التخلف الذى أشرنا إليه قبلاً كيف يتأتى هذا ؟

أولاً : فيما يتعلم بالقضاء على الجهل عندما يدعوا إلى الإسلام إلى التعليم ويرفع من قدر العلماء ومكانتهم لدرجة أنه سبحانه – يذكر بأنهم أشد الناس خشية له تعالى – فيقول : إنما يخشى الله بين عباده العلماء " [٣] وقد ذكر ذلك عقب الحديث عن خلق الله تعالى – والحث على إعمال الفكر وإنعام النظر فيه من نزول الماء لإخراج الثمرات مختلفة الألوان ، وكذلك الجبال مختلفة الألوان ، وكذلك الناس ، والدواب ، والأنعام ، يقول سبحانه " ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سودٌ ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء أن الله عزيز غفور ".

والناظر إلى الآية الكريمة لأول وهلة يدرك بأنها تدعو إلى العلم الشامل والبحث فيما خلق فهى – على إيجازها – تشير إلى علوم مختلفة ينقضى الزمان ولا ينتهى البحث فيها والوقوف على أسرارها وهذه العلوم هى : علم الكيمياء ، علم الزراعة ، علم طبقات الأرض ، جيولوجيا ، علم الإنسان ، علم الحيوان ... الخ .

---

[1] مسند أحمد ٢٩٤/٦ ، كنز العمال / ٣٧٨٧ .

[2] مسند أحمد ٢٥٥/٣ ، وسنن النسائى ٢٨٤/٨ .

[3] سورة فاطر من الآية ٢٨ .

وعلى هذا يتضح مفهوم العلم الذى ينبغى أن تعنى به المدارس والمجتمعات الإسلامية لكى تنهض نهضة شاملة ، وتنمو حقيقة - هذا العلم هو - كما يؤكد العقاد - بحق " جملة المعارف التى يدركها الإنسان بالنظر فى ملكوت السماوات والأرض وما خلق من شئ ويشمل الخلق هنا كل موجود فى هذا الكون ذى حياة أو غير ذى حياة [١] .

ونعود فنؤكد بأن العلم الشامل النافع الذى يؤدى إلى خشية الله تعالى أو المصحوب بخشيته - جلا وعلا- لأنه ما لم يكن وسيلة إلى خشية الله ومعرفته ، مستصحبا هذه الخشية فلن يكون علما نافعاً ، بل يكون علما مدمراً ضارا لا يتجاوز ظاهر الحياة الدنيا وأصحابه عن الآخرة هم غافلون بل أن الله تعالى اعتبر هذا العلم البعيد عن خشية الله والذى لا يؤدى إلى معرفته اعتبره كأن لم يكن ، وكأن صاحبه لم ينل شيئا من علم ، ومن عجب أن أكثر الناس كذلك - ربما علموا شيئا أو ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون " [٢] فقد جاءت الجملة الكريمة يعلمون ظاهرا .. بعد قوله تعالى " لا يعلمون " كبدل فكأنهم لم يعلموا شيئا أن هذا العلم بالتالى لا يؤدى إلى تنمية حقيقية وإن أدى إلى تنمية ما ، فإنها بعد حين يذهب بها هذا العلم نفسه الذى ألحق بصاحبه الغرور والاستكبار ، فلا ريب - والواقع يؤكد ذلك أنه ينقلب وبالأعلى صاحبه وعلى غيره .. والذى ينظر إلى حال العالم وما يجرى فيه يجد أن الشقاء والاضطراب وعدم الطمأنينة على سكانه بسبب الحروب والاستعدادات لها واستعمال الأسلحة التى أنتجها العلم وابتكرها العلماء الذين هم عن الآخرة غافلون - أسلحة دمار شامل وأسلحة دمار جزئى .. الخ هذه المسميات .. ومن ثم تقول إن التنمية الحقيقة لا تتحقق فى ظل هذا ولن تتحقق إلا فى ظل العلم الذى يدعو إليه الإسلام ويأمر الله - تعالى - رسوله ﷺ أن يتزود به فيقول " وقل ربى زدنى علماً ". من الآية ١١٤ " من سورة طه "

---

[١] التفكير فريضة إسلامية ص ٨٥ القاهرة - دار القلم .

[٢] كما قال تعالى فى سورة الروم " يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون . الآية ٧ .

إن التعلم والتعليم روح الإسلام وهما أساس التنمية وجوهرها ، ولا وجود لـــها ولا بقاء لجوهر الإسلام ولا كفالة لمستقبله إلا بهما والناس فى نظر الإسلام أحد رجليـن : إما متعلم يطلب الرشد ، وإما عالم يطلب المزيد ، وليس بعد ذلك من يؤبـه بـه – قال – ﷺ " العالم والمتعلم شريكان فى الخير ولا خير فى سائر الناس "[١].

بهذا يقضى الإسلام على الجهل كضلع من أضلاع مثلث التخلف بل والـهلاك والضياع فى الدنيا والآخرة .

ثانياً : أما الفقر كضلع ثان من أضلاع هذا المثلث – فإن القضاء عليه أرشـد إليـه الإسلام وبين أنه يكون بالعمل والعلم ، نعم يكـون بـالعمل حيـث يقـول الله سبحانه وتعالى –" وقل أعملوا فسـيرى الله عملكـم ورسـوله والمؤمنـون وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون "[٢] .

والعمل الذى يطلبه الإسلام هو العمل الصالح ، وهو الذى ترتقى بـه الأمـم الارتقاء الحقيقى وتنمويه النمو الطيب المبارك وهذا العمل يحقق حياة طيبة فى الدنيا ويكون الخير الأوفى من الله – تعالى – فى الآخر ة – يقول سـبحانه " مـن عمـل صالحا من ذكراً وأنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن مـا كانوا يعملون "[٣] .

وانظر إلى العلم الذى هو قرين العمل وكلاهما يثمرا اقتصاد اقويـا وتفوقـاً كبيراً – انظر إلى هذا العلم وكيف أن الله – تعالى – يرفع به من أوتيه درجات فـى الدنيا والآخرة حيث يقول تعالى " يرفع الله الذين آمنوا منكـم والذيـن أتـوا العلـم درجات" . من الآية ١١ " سورة المجادلة " .

---

[1] خلق المسلم ص ٢٢١ .

[2] سورة التوبة الآية /١٠٥ .

[3] سورة النحل الآية :٩٧ .

والإسلام له منهج فريد فى الاقتصاد يتحقق لمن يأخذ به قوة وتنمية – وقد توفر العلماء المسلمون – ولا يزالون [1] – على دراسة هذا الجانب مما يشهد بشمول نظام الإسلام وتفوقه يدل على حرص الإسلام على أن يعنى المسلم بأن ينأى بنفسه قولاً وفعلاً عن الفقر[2] ليحقق لنفسه ولأمته العزة التى كتبها الله لنفسه ولرسوله وللمؤمنين .

وفى هذا الصدد لا يفوتنى أن أسجل هذه الكلمات التى جاءت على لسان بعض العلماء – الدكتور الفنجرى – رداً على تساؤلات مطروحة عليهم بخصوص التنمية الاقتصادية :-

يقول هذا المفكر : " أنه إذا كانت التنمية الاقتصادية ضرورية فى تكوين المجتمع المتكامل لأنها فى الإسلام فريضة وعبادة والمسلمون قادة وشعوباً مقربون إلى الله – تعالى – بقدر تعميرهم فى مختلف صور المشاركة الشعبية فهى عصب استراتيجية التنمية – وأخذهم بأسباب التنمية والأمر بالمعروف قوام المجتمع الإسلامى ، لأنه يتضمن تفجير الطاقات المختزنة للمواطن من أجل قيامه بمشاريع إنمائية بالجهود الذاتية والمجمعة ، ولابد من القدوة من جانب القادة والمسئولين بتكريس العمل السياسى لدفع حركة التنمية.

وقد نبه القرآن الكريم منذ أربعة عشر قرنا عن الفائض الاقتصادى والاستفادة من تزكيته وتنميته كشرط للإيمان ، فوضع منذ البدء حكام وفقهاء المسلمين وشعوبهم على الطريق الصحيح لتحقيق ذاتهم وتنميتهم ، واحترام الملكية

---

[1] أنجزت فى هذا المجال مؤلفا متواضعاً بعنوان " تأملات فى النظام الاقتصادى فى ضوء السنة المطهرة والكتاب الربانى أرجو أن يكون فيه فائدة تعود على قارئه وينفعه الله به .

[2] ورد أنه : ﷺ – كان يتعوذ بالله – تعالى – من الفقر ، والإشارة المؤحية لخطر هذا الأمر أنه كان يقرن به التعوذ من الكفر " فيقول : اللهم إنى أعوذ بك من الكفر والفقر ، وورد أيضاً قوله ﷺ :لأن يأخذ أحدكم حبلة فيأتى بحزمة من الحطب على ظهره فيكف بها وجهه خير له أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه . رواه البخارى .

الخاصة ، والعامة كأصلين يكمل أحدهما الآخر إلا إذا ثبت لولى الأمر مغالاة الأفـــراد واتجاههم نحو الاستغلال فيكون تدخله لتصحيح مسار النشاط الاقتصادى .

" فالإسلام لا يضع حدا للغنى إلا عند اكتناز المال أو حجبه عن التـــداول أو الإنتاج فالحاكم أو أولياء الأمر مطالبون بـــالتدخل لمنـــع اســـتئثار أقليـــة بخـــيرات المجتمع. والحاكم الذى يتمسك به شعبه هو من يستحث أصحـــاب الـــثروات علـــى استثمار أموالهم لما فيه خيرهم وخير المجتمع ، بل قد يوجههم لأوجـــه الاســـتثمار ويعمل على تسهيلها فهو مطالب دائماً بالعين الساهرة التى تحقق التكامل لا التنـــاقص ، والتعاون لا التصارع بالقدر الذى يحقق حياة كريمة للجميع بتوازن واعتدال .

مسئولية الحاكم تجاه تنظيم الاستثمار وتوزيع الثروات :-

وقد أكد الدكتور / شوقى عبده الساهر أن هناك تعـــاليم خلقيـــة وعقائديـــه وضعها الإسلام كقواعد ومبادئ لتنظيم النشاط الاستثمارى ، وأوجب على أصحـــاب الأموال الإذعان لها ، ثم شفعها بتعاليم حكومية تحيز لولى الأمر أن يتدخل بســـلطانه إذا اقتضت ظروف المجتمع ذلك لتحقيق مجتمع متماسك حى فعال وقد أمر الإســـلام باستثمار المال عن طريق المشروعات فى الزراعة ، والصناعة ، وأيضاً عن طريـــق التبادل التجارى وقد رغب رسول الله ﷺ فى ذلك قائلاً " الجالب مـــرزوق والمختـــار خاطئ [1] والجلب هو استيراد البضائع من إقليم أو بلد لآخر وذلـــك لصـــلاح حـــال الرعية بشرط عدم الاحتكار .. والحاكم يستطيع وضـــع قواعـــد تنظيميـــة للطـــرق المشروعة لاستثمار الأموال لتحقيق التوازن للأمة ، فإذا رأى ولى الأمـــر أن هنـــاك أموالا متعطلة للاكتناز فعليه التدخل كحق للدولة ممثلة فيه ليحث المالك على مداومـــة استثمار ماله وتداوله وهو ما نراه اليوم فإذا عمد أصحاب الأموال إلى استثمارها فى شراء الأرض الفضاء أو الأرض الزراعية بغية حبسها عـــن فلاحتـــها أو تعميرهـــا والاتجار بها حتى يرتفع ثمنها دون توظيف استثماراتهم فى الصناعـــات الضروريـــة والتجارة المشروعة كان لولى الأمر التدخل حتى لا تضيع المصلحة العامة للأمـــة ، ولمنع الضرر وتدخل الدولة فى تخطيط مجالات الاستثمار أمر محمود لولـــى الأمـــر

---

[1] تخريج الحديد .

وذوي الرأى فى المجتمع ليتشاوروا ويتناصحوا فى توحيد نشاط الأمة نحو اتجاه اقتصادى معين يرون فيه خيراً أعظم من اتجاه آخر نضب خيره والحاكم له إلزام المستثمرين باتباع الأساليب الرشيدة فى الأساليب وإذا جنحوا فعليه بمصادرتها إذا تأكد عدم مشروعيتها لحصول بعضهم على الثروة بالسلب أو الاحتيال أو استغلال النفوذ .

ويضيف الأستاذ سالف الذكر : أنه على ولى الأمر أن يتخذ الإجراءات الكفيلة بترشيد الاستثمار وتوجيهه مهتديا بما تمليه توجيهات الإسلام وعلى ضوء الأوضاع الاقتصادية والملابسات الخاصة وفى مصر نرى – والكلام للمنكر سالف الذكر ونحن نوافقه على هذا – نرى أن حاكمها المبارك – أيده الله – يعمل على تنسيق الاستثمارات برشد وحكمة وإيجاده للمرافق الخاصة لمشاريع الاستثمار ومتابعتها وزياراتها المستمرة للوقوف على خطواتها ، بل نجده يعنى بتوسيع نشاط المستثمرين بتسهيل التصدير ما تأكد له أن لا ضرر فيها تمس الأقل ثروة ، وليس التدخل من باب تقييد حرية المستثمرين إنما هو توجيه تستدعيه حاجة الأمة الإسلامية وحتى لا تتضخم الثروة فى قبضة فئة قليلة واحتباسها بين أيديهم . ونكتفى بهذا القدر فى هذا المجال ، ونذكر بأن على المسلمين قادة وعلماء وشعوباً أن يستدعوا الإسلام فى مبادئه وتوجيهاته فى مجال التنمية الاقتصادية وفى كل مجال ، وحسبنا إشارات كلفت للأنظار ، وإثارة للأفكار .

ثالثاً : أما ضلع المثلث الثالث ومثلث التخلف – وهو المرض فإن سبيل القضاء عليه لن يكون إلا بالعلم – أيضاً – وميدانه مدارس الطب ومعاهده وكلياته وكذلك مدارس – التمريض ومعاهدها وكلياتها ، وطلب العلم فى هذه المؤسسات يدخل ضمن التوجيه الإسلامى العام إلى طلب العلم الذى أشرنا إلى طرف منه آنفا ، بل يمكننا أن نقرر بأن طلب هذا العلم – علم الطب وتحصيله يكون فرضاً عينيا أو كفائيا [1] .

---

[1] شاعت أقوال عدة على أقلام علماء المسلمين فى مجال الحديث عن العلم الذى ينبغى على الأمة الإسلامية أن تعلمه أبناءها بحيث تمت التفرقة بين ما هو فرض عين وما هو فرض كفاية بيد أن سوء عرض هذه القضية =

ذلك أن حجر الزاوية فى التنمية البشرية – كما ذكرنا – الإنسان فلا جرم أن تكون العناية بصحته وجسده مقصدا أساسيا من مقاصد الدعوة الإسلامية وتحصيل هذا الطلب أو المقصد يتمثل فيما يتعلق بالإعداد البدنى وهى " تلك العملية التى يقوم الفرد من خلالها بنشاط جسمانى منظم بهدف تنمية قدرات الجسم المختلفة ، وزيادة كفاءته الحركية وما يرتبط بذلك من اكتساب مهارات حركية معينة ، واتباع عادات صحية سليمة ، وذلك للتكيف مع متطلبات الحياة فى المجتمع [1] إن هذا الهدف بالذات لابد أن يتأكد فى مختلف البرامج والأنشطة التى تقوم بها المؤسسات التعليمية فى الدول الإسلامية لضرورته الدينية الإسلامية التربوية من جهة ومن جهة أخرى لأن الدعوة الإسلامية إذ تعتمد العقيدة الدينية موجها ومنطلقا فقد ظن البعض أن ذلك يعنى أن تغرق فى (الروحانيات) ويصبح رائدها قهر البدن ، والنظر إليه على أنه مستودع الشرور ، لأنه مستودع الشهوات والرغبات البهيمية .

فى مجال التربية والتعليم جعل المسلمين يتصرفون بطيش فى أمور تمس حياتهم وبقائهم وقد تعلى رأيتهم أو تنكسها والواجبات الكفائية تتطلب من الدولة أمرين ينبعان جميعاً من تكليفها ابتداء باختيار من يحمل أعباء هذه الواجبات ويستطيع أداءها .

الأول : الاطمئنان إلى أن هذه الواجبات وجدت العدد الكافى من الاختصاصين للنهوض بها فإذا كانت الأمة تحتاج إلى ألف معلم أو ألف طبيب مثلا – ولم يتوفر إلا عدد أقل ، اهتمت – باستكمال العدد الذى يضمن قيام العمل التعليمى أو الطبى ، ولا يجوز أن تتغاضى عن هذا النقصان .

الثانى : أن تتابع بوسائلها الكثيرة حسن الأداء ودقة الوفاء حتى تقوم المصلحة العامة على دعائم ثابتة .

إن الأمة العاجزة عن استخراج بركات الأرض التى سخرها الله للإنسان لن تؤدى رسالة الله والأمة العاجزة عن تجنيد مواهب المسلمين لإعزاز المسلمين أمة تلقى بأيديها إلى التهلكة .

إن فرض الكفاية يأخذ هذه التسمية قبل أن يختار الشخص المناسب ويتحدد الجهد المطلوب أما بعد الاختيار والتحديد فإنه يتحول إلى فرض عين وعلى من كلف به أن يستفرغ الوسع لأتمامه ، وتوضيحا لذلك – يشير الغزالى – إلى أن الصلاة – مثلا فرض عين لأن كل إنسان يستطيع الصلاة أما التدريس أو الطب – مثلا – فهو من فروض الكفاية إذ ليس فى مقدور كل إنسان أن يكون طبيبا أو معلما فإذا رشح امرؤكى يكون معلماً أو طبيبا فإن قيامه بأعباء وظيفته هذه أصبح فرض عين التراخى والتفريط فيها ، اعتداء على الدين . انظر : بتصرف يسير : مشكلات فى طريق الحياة الإسلامية ص ١٧ ، ١٨ الشيخ محمد الغزالى .

[1] انظر مجلة المسلم المعاصر عدد ٦٣ لسنة السادسة عشرة نقلا عن : فى الفكر التربوى العربى الإسلامى ص ٥٣٣ محمود أبو سمرة بتصرف .

وربما ساعد على شيوع هذا الوهم ، أن التربية الإسلامية مع ثرائها الواضح فى النصوص القرآنية والنبوية على أهمية وضرورة العناية بتربية الجسم ، فإن واقع التعليم فى المدارس – الإسلامية فى عصورها الماضية يكاد يخلو من برامج وأنشطة فى هذا المجال . بل أن المسجد وهو المؤسسة التربوية قبل أن تظهر المدارس لم يكن بحكم تكوينه ووضعه – يمثل هذا اللون من ألوان التربية وإذا كان هذا صحيحا إلى حد ما ، إلا أننا إذا فهمنا هذه التربية بمعناها الشامل المتكامل فسوف يتأكد لنا أنه ليس صحيحا تماما ، فالعناية بصحة الجسم والعادات الصحية والسليمة والنظافة وما إلى ذلك روعيت كثيرا فى التطبيق التربوى فى معاهد التعليم فى العصور الإسلامية[١].

أن العناية بصحة الإنسان ، والمحافظة على جسده لها أهمية كبرى فى ميزان الدعوة الإسلامية حيث كان هذا الجسد مكرماً مشرفاً ، ويبدو ذلك واضحاً عندما نستعرض ما يفيد من القرآن الكريم بأن الله تعالى – خلق هذا الجسد وسواه بيده ، حيث يقول – تعالى – " فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقفعوا له ساجدين"[٢] ويشير فى آيات أخرى إلى ما يتعلق بهذه التسوية مما يعطى صورة واضحة لهذا الجسد تتناسب ووظيفة الإنسان فى الحياة على هذه الأرض بين المخلوقات الأخرى التى سخرها الله تعالى :-

إذا كان من المقرر أن الصنعة تأخذ قدرها وقيمتها من صانعها ، فانظر إلى أى مدى تكون قيمة صنعة الله-تعالى- حتى أنه خص الإنسان من بين المخلوقات التى خلقها جميعا خصه بأن يعبر عن خلقه بيديه ونفخ فيه من روحه [٣] .

وهناك بعض الآيات التى تدل على عناية الخالق – سبحانه – بالإنسان اتقاناً وجمالاً وشكلاً .

---

[1] مجلة المسلم المعاصر مرجع سابق د/ سعيد إسماعيل .

[2] سورة الحجر الآية / ٢٩ .

[3] سورة (ص) الآية ٧٥ يقول تعالى " قال يا أبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى استكبرت أم كنت من العالين .

يقول عز شأنه : متحدثا عن الجهاز الحركى فى الإنسان الذى يتكون من الأجهزة العظيمة والمفصلية والعضلية ، والعصبية والتى يتم بها السعى فى الحياة . " ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقه فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين " [١] ويشير فى آية أخرى إلى أن هذه الأعضاء تأخذ شكلاً غاية فى الإتقان والجمال وصنع الله فيقول : خلق السموات والأرض بالحق وصوركم فأحسن صوركم وإليه المصير " [٢] .

يقول ابن كثير فى تفسيرها : " أى أحسن أشكالكم " [٣] ويستطرد القرآن فى ذكر هذه التسوية المتقنة لأعضاء الجسم فى العديد من الآيات فيقول " الذى خلق فسوى " [٤] ويقول " يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم الذى خلقك فسواك فعدلك فى أى صورة ما شاء ركبك " [٥].

يقول فى تفسيرها ابن كثير أيضاً : أى جعلك مستقيما معتدلا القامة منتصبها فى أحسن الهيئات والأشكال "[٦] ويقول تعالى : " لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم"[٧] .

ويقول ابن كثير فى تفسيرها " أنه تعالى خلق الإنسان فى أحسن صورة وشكل منتصب القامة سوى الأعضاء حسنها " [٨] .

---

[1] المؤمنون الآية / ١٢-١٤ .

[2] سورة التغابن الآية /٣ .

[3] تفسير ابن كثير سورة التغابن .

[4] سورة الأعلى / ٢ .

[5] سورة الانفطار - الآية ٦-٨ .

[6] تفسير ابن كثير تفسير سورة الانفطار .

[7] سورة التين آية / ٤

[8] تفسير ابن كثير سورة التين .

ومن هنا يخطئ – كما يذكر بعض الباحثين [١] يخطئ من يظن أن المسلم الوقور هو ذلك المتباطئ فى مشيته المتراخى فى وقفته أمام الناس فلا يسرع ولا يجرى ولا يحمل حملا فى يده ، ولا يلبس ملابس الرياضة ، ولا يأتى من الألعاب الرياضية ما قد يفعله الصبية والشباب فلا يلعب الكرة أو يسبح فى البحر أو يركب دراجة ، بل أن من المسلمين من يتصور أن الألعاب الرياضية نوع من اللهو الذى يلهى الإنسان عن العبادة أو ينقص من وقاره ومظهره واحترامه فى أعين الناس أو يجعلهم يشكون فى علمه وفقهه وتدينه.

أن مهمة الأجسام وجمالها ونضرتها من الأمور التى وجه الإسلام إليها عناية فائقة واعتبرها من صميم رسالته ، ولن يكون الشخص راجحا فى ميزان الإسلام محترم الجانب إلا إذا تعهد جسمه بالتنظيف والتهذيب ، وكأنه فى مطعمه ومشربه وهيئته الخاصة بعيداً عن الأدران المكررة والأحوال المنفرة ، وليست صحة البدن وطهارته صلاحا ماديا فقط ، بل أن أثرها عميق فى تزكية النفس وتمكين الإنسان من النهوض بأعباء الحياة ، وما أحوج أعباء الحياة إلى الجسم الجلد والبدن القوى الصبور " [٢] .

أن من صفات المسلم – وهذا مما ينبغى أن يحرص على تحقيق المجتمعات الإسلامية بمدارسها وجامعاتها لتحقيق التنمية البشرية الحقيقة ، ويقضى على أحد أضلاع مثلث التخلف (المرض) – من صفات المسلم أنه (القوى الأمين) فرسوله الله – ﷺ – يقول " المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف " [٣] ومن الآيات التى يمتدح فيها الله القوة البدنية " أن الله أصطفاه عليكم وزاده بسطة فى العلم والجسم [٤] ويقول سبحانه " إن خير من استأجرت القوى الأمين " [٥] .

---

[1] انظر مجلة المسلم المعاصر ، مرجع سابق ، نقلا عن " الطب الوقائى فى الإسلام ، ص ٧٣

[2] خلق المسلم ، ص١٤٧ ، محمد الغزالى .

[3] مسلم ، ج٨ ، ص ٥٦ .

[4] سورة البقرة /٢٤٧ .

[5] سورة القصص /٢٦ .

وإذا كانت الحواس المعروفة هى قنوات أساسية فى المعرفة : تعلماً وتعليماً تصبح صحتها وتدربها وسلامتها ورعايتها شرطاً جوهرياً لأمكان التعلم والتعليم ومن ثم تحقيق التنمية البشرية ، بل أن حسن القيام بكثير من العبادات الإسلامية بتوقف على مدى ما يتمتع به الجسم من صحة وسلامة مثل الصيام والحج على سبيل المثال ، ناهيك عن الجهاد فى سبيل الله وهو الدفاع عن الدين والأرض والعرض والذود عن الحرمات ومقاومة المعتدى- كل ذلك يتطلب جسداً سليماً وبنية قوية ، الأمر الذى تعنى به وزارة الدفاع عناية فائقة بحيث لا يؤهل لشرف الجندية إلا من كان على مستوى بدنى لائق ، ولعل الآية الكريمة تشير إلى عناية الإسلام بهذا الأمر – أمر إعداد الجندى – واعفاء غير اللائق من هذه الخدمة حيث يقول تعالى بعد حديثه عن القتال والجهاد فى سبيل الله – (ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار ومن يتولَ يعذبه عذاباً إليماً " [١].

هذا وقد عنيت السنة النبوية بتربية جسم الإنسان وتنميته حتى يتحقق للمسلم القوة الجسدية التى تمثل جزءا من القوة المشار إليها فى الحديث آنف الذكر (المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف) .

والمجال لا يتسع لأن نتحدث – بتفصيل – ويكفى أن نشير بإيجاز إلى تركيز السنة [٢] على عوامل معينة لها أبلغ الأثر فى تحقيق هذا الهدف وأعنى بها هذه العوامل المؤثرة فى تربية الجسم ونموه والتى تتمثل فيما يلى :-

عامل الوارثة [٣] وعامل التغذية [٤] وعامل النظافة الذاتية [٥] وعامل النظافة البيئية [٦] وكامل المرض [٧] وعامل الأرهاق والتعب [٨]وعامل الراحة والترويح [٩] وعامل التربية البدنية [١٠].

---

[1]سورة الفتح الآية : ١٧ .

[2]لابن القيم رحمه الله – كتاب قيم فى مجال الطب استخلصه من السنة النبوية المطهرة وعنون له بعنوان " الطب النبوى فليرجع إليه من شاء .

[3]من الأحاديث فيما يتعلق بعامل الوراثة وأثره قوله ﷺ " تخيروا لنطفكم وانكحوا الاكفاء وانكحوا إليهم " رواه ابن ماجه ، ج١ ، ص٦٣٣ وقوله " انكحوا الصالحين والصالحات " سنن الدارمى ، ج٢ ، ص ١٣٧ .

(4)بشأن التغذية الصالحة عندما نستنطق السنة تبيننا عن توجيهات تحقق لمن يتبعها تنمية للجسم يظهر ذلك فى حث ولى الأمر على الإنفاق على من يرعاه من كسب طيب كقوله ﷺ دينار انفقته وفى سبيل الله ، ودينار أنفقته فى رقبة ، ودينار تصدقت به على مسكين ودينار أنفقته على أهلك أعظمها أجرا الذى أنفقته على أهلك رواه مسلم ، ج٣ ، ص ٨٧ ، وبدراسة ما كان يتناوله رسول الله – ﷺ– من أنواع الطعام نجد آيات تربوية هامة بالتوجيه إلى الغذاء المفيد من الناحية النوعية وهو ما أكدته الأبحاث العلمية الحديثة وما سبقت إليه السنة النبوة المطهرة قبلها بقرون طويلة – ومن تلك الإيماءات التوجيه إلى تناول الطعام الغنى (بالبروتينيات) وهى المتوفرة فى اللحوم ومن إيماءات السنة أيضاً المتعلقة بالتغذية توجيهها إلى تناول انواع الغذاء التى تحتوى على المواد الكبروهيدراتية والدهنية التى تتوفر بكثرة فى السكريات والنشويات التى يستمد منها البدن ما يحتاج إليه من دفء وطاقة وإذا كانت السنة المطهرة قد اهتمت بنوعية الغذاء فهى قد اهتمت أيضاً بتنميته واشترطت فيها ميزان الاعتدال بحيث لا تزيد عما تحتاج إليه المرء فى الزيادة ضررا مثلما هو فى النقصان يراجع لمزيد من التفصيل والإطلاع على الأحاديث والتوجيهات الخاصة بعامل التغذية يراجع " أسس التربية الإسلامية فى السنة التوبة " ص ٢٤٤ – ٢٥٧ د/ عبد الحميد الصيد الزنتانى .

(5)بشأن النظافة نشير إلى التوجيه العام من قول الله تعالى (أن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين البقرة / ٢٢٢ ، ونشير إلى بعض الأحاديث النبوية كقوله ﷺ " عشر من الفطرة قص الشارب ، وإعفاء اللحية ، والسواك ، واستنشاق الماء ، وقص الأظافر وغسل البراجم ، ونتف الإبط ، وحلق العانة ، وانتقاص الماء ، قال ذكريا عن يصعب راوى الحديث : ونسيت العاشرة إلا أن تكون المضمضة " مسلم ج١ ، ص١٥٣ – ١٥٤ وعن أنس قال : وقت لنا فى قص الشارب وتقليم الأظافر ، ونتف الإبط ، وحلق العانة أن لا نترك أكثر من أربعين ليلة ، المرجع السابق وعن أبى هريرة قال : " حق على كل مسلم أن يغتسل فى كل سبعة أيام يوما يغسل فيه ، رأسه وجسده " البخارى ج٢ ،ص٧ وللمزيد يراجع أسس التربية الإسلامية مرجع سابق ص ٢٥٧ – ٢٦٧ .

(6)بشأن نظافة البيئة نشير إلى بعض التوجيهات التى منها ما رواه أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال : اتقوا اللعانين : ينظر سنن أبو داود /٢٥ مسند أحمد ٣٧٢/٢ ومستدرك الحاكم ١٨٦/١ .. قالوا : وما اللعانان يا رسول الله قال : الذى يتخلى فى طريق الناس أو فى ظلهم وما رواه جابر أن رسول الله ﷺ نهى أن يبال فى الماء الراكد ، إلى غير ذلك من التوجيهات العديدة التى نلتمس – من خلالها – حرص السنة على نظافة البيئة وتنقيتها من عوامل القذارة والأوساخ التى قد تكون سببا فى انتشار الأمراض الخطيرة بين الأفراد مما يلحق بفرادى فيشقون فى حياتهم ويعجزون عن تحقيق طموحاتهم ويلحق الضرر بالمجتمع عامة ، فالمجتمع الذى يكثر فيه عدد المرضى أو ينتشر فى محيطه المرض ، لا يمكنه بلوغ النهوض والتطور الذى يبغيه أو تحقيق الأمانى التى يتطلع إليها فى التقدم والازدهار المرجع السابق ص ٢٦٨–٢٧٠ .

(7)ركزت السمة النبوية على أهمية الصحة وأثرها الإيجابى فى النمو والتنمية لكونها من أهم دعائم الحياة السعيدة للإنسان وحثه على مراعاة جانب الوقاية وجانب العلاج بكل عناية واهتمام حتى يحافظ على

=عافيته ويحمى بدنه من الإصابة والعلل والأمراض التى أن لم تفتك به عرقلت نموه ونشاطه وكانت سببا فى عجزه وفشله فى حياته وحولت حاله من ذروة السعادة إلى درك الشقاء ، ونشير - على سبيل المثال - إلى تنويه السنة بقيمة الصحة وضرورة الحفاظ عليها فى قوله ﷺ - فيما رواه ابن عباس رضى الله عنهما - نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ - رواه البخارى ج٨ ، ص ١٠٩ وتحقيقا لهذا عنيت بالجانب الوقائى والمحافظة على الصحة ووردت توجيهات فى هذا الصدد ووردت توجيهات أخرى تتعلق بالجانب العلاجى ، وكما أشرنا إلى ما كتبه ابن القيم فى كتابه " الطب النبوى " فإننا نشير إلى ما جاء فى كتاب " أسس التربية الإسلامية فى السنة النبوية " من ص ٢٧٠ - ٢٨١ فمن أراد تفصيلا فليرجع إليها.

(8) وفيما يتعلق بالتعب والإرهاق كعامل مضر بالبدن راعت السنة أيضا على ملاحظة هذا وأن يقوم الإنسان بالعمل الذى يطيقه ، فلا ينبغى أن يجهد نفسه أو يكلفه غيره بما لا يطيقه وليس هذا يتعلق بالقيام بعباده محضه كالصلاة بل فى كل عمل لا يصيقه الإنسان دنيويا كان أم أخرويا ، وكيفى أن نشير إلى قوله - ﷺ - يا أيها الناس عليكم من الأعمال ما تطيقون " فإن الله لا يمل حتى تملوا وإن أحب الأعمال إلى الله ما دوم عليه وأن قل " مسلم ج٢ ، ص١٨٨-١٨٩ .

(9) أما عن عامل الترويح كعامل مهم لسلامة البدن وراحته فإن السنة النبوية أولته أهمية أيضا لأثره الفعال فى الصحة البدنية وبالتالى فى الصحة العقلية والصحة النفسية وكان موقفها الإيجابى من الترويح بمظاهره وعوامله المختلفة موقفاً تربوياً سباقاً ورائداً عندما نضع فى الحسبان ما أكدته نظريات التربية الحديثة للإنسان واستجمامه واستعادته لقوله واستجماعه لطاقته وحيويته من جديد فضلا عن تعلمه ، وتدربه ، ونمو خبراته وتجاربه ، من خلال ما يمارسه من ألعاب وأنشطة ترويحية ، فقد أكدت السنة النبوية على ضرورة الترويح والتسلية بعد الجهد والنشاط ، ووازنت بذلك موازنة معتدلة بين الجانبين الجدى والترويحى فى الحياة البشرية تمشيا مع فطرة الإنسان وتلبية لمطالبة الضرورة وإشباع حاجات الطبيعة .

والنصوص الواردة فى هذا الصدد كثيرة ونكتفى فى هذا الصدد بما روى عن حنظلة الأسيدى قلت : نلقى حنظلة يا رسول الله ، فقال : رسول الله -ﷺ- وما ذاك قلت : يا رسول الله تكون عندك تذكرنا بالنار والجنة حتى كأنار أى عين ، فإذا أخرجنا من عندك عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات نسينا كثيرا فقال رسول الله -ﷺ- والذى نفسى بيده أن لو تكون عندى وفى الذكر لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفى طرقكم ، وكلن يا حنظلة ساعة وساعة ثلاث مرات " رواه مسلم ج٨ ، ص ٩٤/٩٥ وراجع " أسسا لتربية الإسلامية فى السنة النبوية ، ص ٢٨٥/٢٩٧ .

(10) أما عن التربية البدنية ، كعامل مهم لتقوية الجسم وتنمية الجسم وتنميته فإن السنة النبوية لم تغفلها بل حثت عليها ، وصدر من رسول الله -ﷺ- قولاً وفعلاً ما يدل على هذا فمن ذلك الاعتناء برياضة المشى وهى فى عرف التربية الحديثة سيدة الرياضات لما لها من تأثير إيجابى فعال على البدن وأجهزته الوظيفية - وينقل هنا ما ورد عن جابر بن عبد الله قال : كانت ديارانا نائية عن المسجد فأردنا أن نبيع بيوتنا فنتقرب من المسجد فهانا رسول الله -ﷺ- فقال : أن لكم بكل خطورة درجة رواه مسلم ج٢،ص١٣١ وقد مارس رسول الله -ﷺ- بنفسه رياضة المشى سواء فى تنقله لأداء الصلاة أو فى زياراته ، وفى هجرته وفى

وفى ختام حديثنا عن هذه الآلية – العلم – التى تعتبر الإطار الأساسى للتنمية بمعناها الشامل – كما رأينا – وهى الإطار الذى يتم عن طريقة القضاء على مثلث التخلف الفقر – الجهل – المرض – فى ختام حديثنا عن هذا الموضوع لعلنا ندرك مغزى مخاطبة رب العزة جلا وعلا لسيدنا رسول الله ﷺ وتعليمه إياه أن يدعوه جلا وعلا بالاستزاده من العلم فى قوله سبحانه " وقل رب زدنى علماً " .

ولقد أدرك هذا أولو الأمر – فى مصرنا الغالية فجعل مشروعه الحضارى يتمثل فى العلم والتعليم كما أشرنا وقام معاونوه وعلى رأسهم سيدة مصر الأولى السيدة الفاضلة /سوزان مبارك – التى قامت بجهود مشكورة للاستزادة من العلم والتعليم ، والثقافة ، وتحويل المشروع الحضارى إلى واقع ، فكانت الدعوة إلى بناء المدارس فى القرى وفى النجوع وكان " مهرجان القراءة للجميع " الذى يعرفه القاصى والدانى ، ، والصغير والكبير .. كل ذلك يذكر فيشكر ، وإذ يلمس معاونو السيد الرئيس هذه الجدية لتحويل المشروع إلى واقع فإنهم جميعا وزراء تعليم وثقافة وأوقاف ورئيسهم – رئيس مجلس الوزراء – ناهيك عن الأزهر جامعا وجامعة – كل هؤلاء بمن يعاونونهم يعملون ليلا ونهارا على أن يتحول المشروع الحضارى إلى واقع لتحقق التنمية الحقيقية البشرية لتدلف مصر إلى الألفية الثالثة ، وقد أخذت مكانها المتميز دائما عزة ورفعة وتقدما فى كل المجالات ، والله المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله .

=غزواته ونحوها ، هذا مع ملاحظة أن منسك الحج وهو من أركان الإسلام تعتمد على المشى والهرولة كطواف حول البيت والسعى بين الصفا والمروة وأداء غيرها من الشعائر ، بالإضافة إلى أن السنة النبوية حثت على ممارسة رياضة السباق بأنواعها سباق الخيل ورياضة الرمى ، ورياضى لاسباحة ورياضة المصارعة وقد قال ﷺ " حق على الوالد أن يعلمه الكتابة والسباحة والرماية وأن لا يرزقه الأطيبا " رواه البيهقى فى شعب الإيمان عن أبى رافع وقد ضرب –ﷺ– لنا القدوة بالنسبة للمصارعة صور القدوة بمصارعته لركانة بن يزيد ، وكان أقوى قريش وابرز مصارعهما راجع فى ذلك أسس التربية الإسلامية فى السنة النبوية مرجع سابق ص ٢٩٧–٣٠٩ .

مراعاة الدعوة الإسلامية لدور المرأة فى التنمية البشرية :-

ونحن نتحدث عن التنمية البشرية ، وقد كثر الحديث عن دور المرأة وحقوق المرأة ومكانة المرأة كثر الحديث عن هذا ، ويريد المغرضون أن يفتعلوا خصومة بين المرأة وبين الإسلام ، من خلال كثرة الحديث عن هذه الموضوعات التى تتعلق بالمرأة بقصد أو بغير قصد وكأن الإسلام لم يعط للمرأة حقوقها ، ولم يعرف لها مكانتها منذ أكثر من أربعة عشر قرنا من الزمان ، هذه الحقوق ، والتى عرفها الإسلام للمرأة لم تستطع أعظم دول الأرض تقدماً ونحن ندلف إلى القرن الواحد والعشرين ، لم تستطع أن تحقق لها بعض هذه المكانة التى عرفها الإسلام أو تعطيها بعض هذه الحقوق ومهما قيل عن حرية المرأة عرفتها نظم الغرب أو قوانينه ومهما تحدثوا عن حقوق ، فإن كل ذلك لم يحقق للمرأة السعادة الحقيقة لدرجة أن بعض النساء ، فى الغرب عندما يعرفن منهج الإسلام فى معاملة المرأة أما وزوجة وبنتاً وأختاً وعضواً فى المجتمع مالها وما عليها ... الخ عندما يعرفن هذا وينظرن إليه بموضوعية وتجرد يتمنين أن يحصلن على بعض هذه الحقوق أو يكون لهن هذه المكانة أو بعضها ، بل ربما تمنين أن يكن مسلمات وصدق الله – تعالى " حين قال " ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين " [1] لكن المشكلة أن نساءنا أنطلت عليهن الدعوات الفارغة إلى الحرية التى تساوى الفوضى والإباحية ، أو التقدمية التى هى فى الحقيقة رجعية .. وأصبح من لا يفهمون من لا يفهمن يثيرون هذه الموضوعات التى تتعلق بالمرأة ، والأمر الذى يجعلنا نذكر بما نكتب ونؤكد على دور المرأة حيث لا يقوم مجتمع – أى مجتمع – بدون المرأة – وجوداً واستمراراً واستقراراً ، ومن هنا كانت عاملاً أساسياً فى هذا المجال مجال التنمية البشرية .

فى إطار هذه المفاهيم يكون دور المرأة فى النهضة والتنمية :-

أشرنا إلى أن التعليم يعتبر حجر الزاوية فى أية نهضة أو تنمية ، والنهضة أو التنمية هى عملية إرادية لصياغة بناء حضارى اجتماعى متكامل يؤكد فيه

---

[1] سورة الحجر الآية رقم ٢ .

المجتمع هويته وذاتيته وإبداعه ومن ثم فإن النهضة أو التنمية الراسخة والمطـــردة تتضمن عمليات الإبداع والتجديد كشرط لازم من شروطها[١] .

وإذا كانت عملية الإبداع ، والتجديد الحضارى للأمة الإسلامية تتخذ معيـــار الإيمان بالله – تعالى – والفاعلية .. وتعبئة القدرات الذاتية للطاقات البشرية فى حـل المشكلات ووضع السياسات والتمكين للنهج القرآنى وشحذ الإنتاج الثقافى وإشـــاعة التدبير المستقبلى فإن ذلك يتطلب مقومات أساسية فى العلاقات الاجتماعيـــة ، وفـــى مدى ما يتاح لابناء الأمة من تفاعل ، وتواصل ، تأثير وتأثر وذلك كله لا يتحقـــق إلا فى إطار من المشاركة فى متع الحياة القائمة على الشورى .

وهذا الإطار الإنمائى [٢] الحضارى يلقى مسئوليات مختلفـــة مـــن الأفكـــار والممارسات السائدة للمرأة ، ودور المرأة فى الإسهام فى قضايا النهضة أو التنميـــة أخذا وعطاء ، لا ينبغى أن يكون مجرد اللحاق والتساوى مع الرجل فى أنماط تنميـــة استهلاكية أو استمتاع بسلع الخدمات أو الطموح إلى الحصول على وظيفة وإنما هـو القيام بمهام حددتها الدعوة الإسلامية وتحتاج للقيام بها إلى تربيـــة خاصـــة وقيـــام المجتمع الإسلامى بدوره فى تربية الفتاة من هذا المنظور يقتضى وعيها ببعض مـــا يتعلق بالمرأة وضعاً ومكانة وتعليماً فى إطار الدعوة الإسلامية .

يقول جل شأنه : " وما خلق الذكر والأنثى . إن سعيكم لشتى فأما من أعطـى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى . وأما من بخل واستغنى . وكذب بالحسنى فسينسره للعسرى " [٣]

ففى جمع الذكر والأنثى فى القســـم قرينـــة علـــى نظـــرة الله – تعـــالى – المتساوية والمتكاملة فالعلاقة بينهما التساند والتوافق لا التعاند والتصارع ، ويســـوغ

---

[1] مجلة المسلم المعاصر العدد ٦٣ السنة السادسة عشر " أهداف المدارس الإسلامية د/ إسماعيل على – نقـــلا عن " حامد عمار فى بناء الإنسان العربى ، ص ٣٣٣ .

[2] مجلة المسلم المعاصر مرجع سابق ص ١٢٢ وما بعدها .

[3] سورة الليل : ٣/١٠ .

القول بذلك أن ما جاء بعد الآية الأولى من الإشارة إلى اختلاف الناس فى فعل ما هو حسن صالح وما هو عكسه وتيسير الله لهم وقتها يشمل الذكر والأنثى ويكون فى هذا تقرير قرانى لمبدأ تكليف الذكر والأنثى على السواء تكليفاً متساوياً بكل ما يتصل بشئون الدنيا والدين ، ولمبدأ ترتيب نتائج سعى كل منهما وفقاً للفعل الذى يصدر عن كل منهما [١] وجمهور العلماء والمفسرين متفقون على أمر مهم بالنسبة لمدى النص القرآنى وهو أن كل ما جاء فى القرآن من خطاب موجه إلى المؤمنين والمسلمين فى مختلف الشئون بصيغة المفرد والمذكر والجمع المذكر ما يتصل بالتكاليف والحقوق والأعمال العامة يعتبر شاملاً للمرأة إذا لم يكن فيه قرينه تخصصية .

بحيث يمكن أن يقال إن كل فرض على المسلمين فيه منح لهم أو حدد لهم أو حظر عليهم أو أبيح لهم أو طلب منهم أو نبهوا إليه أو ندد بهم من أجله من تدبر آيات الله وتفهمهما بالعلم بها وتنفيذ مضمونها ومن تكاليف نقدية ، ومالية وبدنية ، ومن حقوق ومباحات ومحظورات وتتبعات وآداب وأخلاق ومواقف فردية ومالية واجتماعية وما ترتب عليها من نتائج إيجابية وسلبية فى الدنيا والآخرة – كل هذا يشمل الرجل والمرأة على السواء دون أى تفريق وتميز " [٢] .

وإذا كانت المرأة مسئولة خاصة فيما يختص بعبادتها ونفسها ، فهى مسئولة مسئولية عامة فيما يختص بالدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والإرشاد إلى الفضائل والتحذير من الرذائل [٣] وقد صرح القرآن الكريم بمسئولياتها فى ذلك الجانب وقرن بينها وبين شقيقها الرجل فى تلك المسئولية كما قارن بينها وبينه فى مسئولية الانحراف عن واجب الإيمان والإخلاص لله – وللمسلمين " والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون

---

[1] المرجع السابق نقلا عن المرأة فى القرآن والسنة ، ص ٢٩ ، د/ محمد عز دروزة بتصرف يسير .

[2] المرجع السابق .

[3] انظر رسالتنا لنيل درجة الماجستير بعنوان " جهود المرأة المسلمة فى الدعوة إلى الله خلال القرن الأول الهجرى " غير مطبوعة بمكتبة كلية أصول الدين بالقاهرة فقد تحدثت فيها بشئ عن التفصيل عن هذا الموضوع موضوع حدود دور المرأة فى الدعوة فى المجتمع .

عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم ".الآية ٧١ " من سورة التوبة "

وإذن فليس من الإسلام أن تكف المرأة عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر اعتماداً على ظن أو وهم أنه شأن خاص بالرجال دون النساء ، فللرجل دائرته ، وللمرأة دائرتها فى الحياة لا تستقيم إلا بتكاليف النوعين فيما ينهض بأمتهما فإن تخاذلا أو تخاذل أحدهما انحرفت الحياة الجادة عن سبيلها المستقيم "[١].

وهناك عبارة كثيرا ما ترددت على ألسنة الباحثين وأقلامهم بحسن نية وهى ما معناه: أن الإسلام أباح للمرأة أن تتعلم ، فالوضع هنا وضع جواز وإباحة والعلم والتعليم للمرأة ليس فيما نفهم من استقراء نصوص الإسلام الرئيسية من الإباحة والجواز ، بل ليس حق من الحقوق ؛ أنه تكليف واجب ملزم وكل آيات العلم فى القرآن لم يخص بها الرجال دون النساء ، إن القرآن الكريم يبدأ بالعلم والقلم والإنسان هنا لعامة الجنس لا للرجل دون المرأة والله – تعالى – خلق الإنسان علمه البيان فالإنسان هنا لعامة الإنسانية لا للرجل دون المرأة . [٢]

القضية هنا قضية الإيمان ليست القضية أن الحديث قال : أن العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة ولكن العلم من الإيمان وما يجوز على الإيمان يجوز على العلم " [٣] .

إن الله حين يضرب الأمثال يبين الآيات للذين يعلمون للذين يعقلون ، للذين يفقهون للذين يبصرون ، يضربها كذلك للذين يؤمنون فى نفس الصياغة يبين الآيات ويضرب الأمثال للذين يؤمنون (إنما يخشى الله عن عبادة العلماء) .

---

[1] محمود شلتوت : الإسلام عقيدة وشريعة ، ص ٢٢٥ .

[2] مرجع سابق .

[3] راجع " أهداف المدارس الإسلامية ، ص ١٢٣ ، مجلة المسلم المعاصر عدد ٦٣ السنة السادسة عشرة بتصرف يسير .

القضية هنا قضية الإيمان ، فهل من المباح والجائز على المرأة المسلمة أن تكون مؤمنة أم أن ذلك فريضة وواجب وتكليف ؟ أن ما يجوز على العلم يجوز على الإيمان ، لأن العلم من الإيمان ، والنصوص صريحة كل الصراحة لأن من قال إن العلم ليس من الإيمان ومن الجهاد فقد نقص عقله ، ولفقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد ، فالعلم من الإيمان فهل يقال فيه بالجواز وهل يقال فيه بالإباحة أم هو تكليف بل هو من جوهر إنسانية الإنسان.

وقد ضرب لنا رسول الله ﷺ مثلاً رائعاً فى الاهتمام لتعليم المرأة كان لا يبايع النساء اللاتى كن فى دار الشرك وجئن ملسمات حتى يمتحنهن ليعلم صدق إيمانهن " يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات ، فامتحنوهن الله أعلم بإيمانهن فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار"[١] .

فالمقصود هنا هو التثبت من (الدوافع) و (النية) وهذا شرط هام ورئيسى لضمان حسن التربية ، فإذا ما انتهى الامتحان يجئ دور البيعة وفيها يتم تعليم لأهم ما يجب أن تلتزم به المرأة من حدود الله وما يجب أن تنتهى عنه من المحرمات لقبولها فى المجتمع الإسلامى ، وقدر أمر رسول الله ﷺ بذلك " يا أيها النبى إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئا ولا يسرقن ولا يزين و لا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك فى معرفون فبايعهن " [٢] .

وإذا كنا نرى أن الفتاة المسلمة لها أن تتلقى فى المدرسة أو غيرها من معاهد ومؤسسات التعليم مختلف العلوم والمعارف التى تريدها ؛ إلا أنه من الضرورى أن تختص بنوعية خاصة من مجالات التربية والتنمية وأنواع المهارات والمعارف مما يتصل بطبيعتها الخاصة ووظيفتها الأساسية كأم وزوجة وربة بيت .

---

[1] سورة الممتحنة : ١٠

[2] سورة الممتحنة : ١٢ .

واختلاط الجنسين فى التعليم من المسائل الشائكة التى واجهها العالم من قديم الزمان ولا يزال يواجهها حتى الآن ، والخشية من فساد البنات لاختلاطهن بالذكور جعلت الكثيرين يعلمونهن على حده .

ويمكن أن نأخذ ونقرر من استقراء آراء كثيرة أن الحكم فى تعليم البنات والبنين معا صغارا قبل أن تصل الفتيات حدا لاشتهاء جائز لا شبهة فيه إذ ليس هناك مظنة المفسدة ولا يكون الاختلاط سبباً إليها ، وهذا ما ينسجم مع التعليم فى الصفوف الابتدائية ، أما التعليم المختلط بعد ذلك أى قرب نضوج الفتى والفتاة فى سن البلوغ الذى يسمى بالمراهقة فلا يصح .

قضايا المرأة ... رؤية جديدة :-

مع اهتمام الإسلام بالمرأة كإنسان – لأنه يهتم بالإنسان بعامة ذكراً كان أو أنثى – مع هذا الاهتمام ومع ما أوردناه من نصوص [1] صريحة تدل على ما منحها الإسلام من مكانة لا تقل عن مكانة الرجل – مع هذا لا تزال المرأة مهزومة من الداخل ومن الخارج ، ولا تزال تشعر بالضعف والانكسار ، وبعد تحقيق الذات .

وقبل أن نحدد أسباب هذه المعاناة التى تغلب على كثير [2] من النساء ، وقبل أن نجيب على هذه الأسئلة التى لابد من إثارتها لأنها مرتبطة بالتعرف على أسباب هذه المعاناة وهى لماذا لم تؤت هذه الكتابات أكلها ؟ ما هى العوامل التى جعلت هذه الآيات الكريمة وهذه الأحاديث الشريفة واقعاً انتفع به إسلامنا فى صدر الإسلام ؟ واقعا انبثقت منه نساء تركن بصماتهن على وجه التاريخ ؟ ما هى الجسور التى هدمت فحالت بيننا وبين هذا الواقع المشرق ؟ .

---

[1] من هذه النصوص قول الله تعالى " والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء من بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر " سورة التوبة الآية : ٧١ .

[2] يمكن أن يرى بعض الرجال أن شريكته أو أمه أو أخته لا تعانى من هذه المشاعر وهذه الآلام وهى تحظى داخل الأسرى وخارجها بطائل من الاحترام .

قبل هذا يجدر بنا أن نذكر [١] أن هناك عاملاً مشتركاً بين النساء جميعهن يقرب بينهن ويربط بعضهن ببعض ، وهو أن الله وهب المرأة الأحاسيس ، والشفافية ما يؤهلها للقيام بوظيفتها كمربية وزوجة على أكمل وأحسن وجه إنها تحنو على رضيعها ، تستوحى من بكائه وابتسامته ما يزعجه وما يسعده ، وتتعامل مع زوج قد لا يعبر عن أحاسيسه على النمط الذى تعبر به هى ؛ ومع هذا لا تعجز عن تلبيته ، والتعاون معه ، إذن فإن طبيعة تكوينها وتركيبها تجعلها عرضة للتأثر بما تشعر به غيرها من النساء أو بما تزوجه الثقافة من حولها وذلك على الرغم مما يقدمه لها الزوج من تقدير واحترام .

بعد هذا أقول : لعل مراجعة الكتابات التى اهتمت بموضوع المرأة تفيد وتلقى ضوءاً كاشفاً للإجابة على التساؤلات آنفة الذكر ، ولهذا فإننا نستصحب ما كتبته باحثة [٢] ذات رؤية ثاقبة – قالت : إن هذه الكتابات تلمس منها صنفين :-

الصنف الأول : اهتم بتجميع الآيات الكريمة ، والأحاديث الشريفة التى تدل وتوضح منزلة المرأة فى الإسلام وما تحظى به من حقوق وامتيازات وينبغى علينا أن ندرك هذه الحقائق وأن نقدر هذه الأعمال خير تقدير ، حيث إنها تمثل قاعدة لابد منها للانطلاق لدراسة وقائع المرأة ، ولفهم هذه النصوص وتخليصها من رواسب التقليد والعادات .

غير أن هذه الأعمال تبدو – أحياناً – وكأنها للتباهى والتفاخر أو أنها مجرد سرد بهدف رفع معنويات هذا المخلوق الرقيق – المرأة – التى كثيراً ما تظلم عن فهم أو جهل وعلى الرغم من الخدمات العظيمة التى تقدمها لمن حولها إنها تمر خلال أطوار حياتها بأدوار عظيمة من أبنه باره إلى زوجة صالحة ، ومن ثم إلى أم تتحلى بأجل خصال تمنحها القدرة على العطاء لمن حولها وتخلصها من الأثرة حتى تشرف على إعداد إنسان متوازن فعال وقد كان من الأجدى لو أن هذه المؤلفات اهتمت – أيضاً – برسم التطورات التى مر بها واقع المرأة منذ بداية رسالة الإسلام

---

[1] أنظر موضوع قضايا المرأة رؤية جديدة المنار الجديد عدد /٥ للباحثة رحمة بنت مالك بن بنى .

[2] المرجع السابق .

إلى يومنا هذا الذى أصبحت المرأة فيه واحدة من أثنين : إما جاحدة لمعنى مكانتها ورسالتها ، وإما امرأة " رجلة " أى صارت رجلاً مشوها – كما أطلق عليها الشيخ محمد الغزالى رحمه الله ؟

وعلينا أن نلاحظ – تقول الباحثة سالفة الذكر [1] – علينا أن نلاحظ بأن رسم هذه التطورات يستلزم توضيح أن الإنسان تكون قيمته الذاتية إنطلاقاً بين قيمتين – أما القيمة الأولى : فثابتة لا تتغير لعبر الزمان ولعبر المكان قيمة كرمه الله بها منذ خلق آدم عليه السلام وتتمثل هذه القيم فى الامتيازات التى متعه الله بها من حرية عقيدة وكرامة نفس ، وعقل ، وحفظ لأسرته إلى جانب ماله ، إضافة إلى الحدود التى رسمها حتى لا يعتدى على هذه الامتيازات وأما القيمة الثانية فهى قيمة اجتماعية تغير الزمان والمكان أى من عصر إلى عصر ومن أمة إلى أخرى ، فهذه القيمة يستلهما الفرد من ظروف الحياة التى يعيشها ومن مدى حماية مجتمعه للامتيازات التى منحه الله إياها .

وخلاصة هذه العلاقة ما بين القيمتين ، إنه كلما ارتفعت القيمة الاجتماعية للفرد ، زادت الضمانات التى تدافع عن امتيازات الفرد لتقارب القيمة الثابتة ، كلما استشعر هذا الفرد رجلا كان أم امرأة ارتفعا لقيمته الذاتية والنفسية والمادية ، والعكس صحيح .

وتزيد الأمر وضوحاً فنقول : إن الله – تعالى – ضمن الامتيازات التى كرم بها آدم أن حرم دمه بغير حق ، فهو بذلك وضع قيمة ثابتة للنفس البشرية ، غير أن القيمة الاجتماعية لهذه النفس وقد تهبط فى ظروف معينة من استبداد وغيره لدرجة أن يصبح القتل أداة لذة أو أداة لتحقيق مصلحة مادية ، وهنا يبدو جلياً أن سبب شعور المرأة بالانهزام وسبب المعاناة – أيضاً – عدم تحقيق الذات – ليس راجعاً إلى قبول أو رفض النصوص التى كرمتها فحسب ، بل أيضاً إلى طبيعة العلاقة

---

[1] نفس المرجع .

بهذه النصوص ، وأن رصد هذه العلاقة هو الذى سييسر علـــى الـــدارس تصحيـــح الواقع طبقا للمبادئ القرآنية .

ثم تواصل الحديث عن الصنف الآخر من الكتابات وهى تلك التـــى تنـــاولت المرأة وكأنها عنصر مستقل عن باقى المجتمع ، ويبدو أن هذا الصنف الأخير يمثـــل قطبين فى صفة صراع ظاهرى ، قطب أراد انفتاحا كاملا وتقليـــداً أعمـــى للغـــرب ، وقطب شدد على المرأة حتى كاد أن يخنقها وبرهن على أن الغلو يولد الغلو أى أنـــه دفعها فى كثير من الأحيان إلى مثل ما أراد لها الطرف الأول ، وجعلها بذلك تـــهرب من واقعها وتلهث وراء الغرب .

معاناة المرأة تتبع من معاناة المجتمع :-[1]

فليست القضية قضية المرأة وحدها ، وإنما القضية قضية الإنســـان حيـــث كانت إن المرأة والرجل وجهان لعملة واحدة هى الإنسان – القضية قضية المجتمـــع بأمراضه المتعددة ، ومن طور إلى طور قد تختلف الأغراض التى تبدو عليها وعلـــى الرجل والمرأة من فكر عقيم واضطرابات أسرية وأزمات أخلاقية غير أن الجرثومـــة واحدة .

فما الحل ؟ الحل – إذن – يجب أن يكون منسجماً مع الحلـــول للمشـــكلات الاجتماعية الأخرى ضمن برنامج حضارى شامل فما أفلست المرأة إلا عندما أفلـــس المجتمع كله . ولن يكون الحل حلا إلا إذا بعثنا الأمة جمعاء وســـرنا فـــى الاتجـــاه الصحيح .

وتنقل الباحثة [2] رحمة بنت مالك بن بنى عن والدها تقول " يقـــول والـــدى وأستاذى " مالك ابن نبى " فى هذا الإطار " يجـــب أن لا تكـــون نظرتنـــا إلـــى هـــذا الموضوع بدافع رفع مستوى المرأة ذاتها أى بدافع من مصلحة المرأة وحدها ، بـــل بدافع من حاجة المجتمع وتقدمه الحضارى .

---

[1] نفس المرجع بتصرف يسير .

[2] نفسه .

الغرب يعطى المرأة - بصفة متسرعة [1] مساواة صورية لبعض النظر عن صلاحية أو بطلان التنمية :-

هذه المساواة الصورية حدت بالغرب إلى أن يعرقل الدراسات الدقيقة التى تبحث عن طبيعة الفروق بين المرأة والرجل ، واعتبروها فروقا نوعية لا وزن لها - ويكفينا - تقول الباحثة سالفة الذكر - يكفينا هنا أن نذكر مثالاً على أن الحل الذى يكون هدفه رفع مستوى المرأة فحسب دون النظر فى البعد الاجتماعى لهذا الحل ، ودون النظر إلى طبيعتها وتكوينها العضوى واستعداداتها الفطرية ، وما يمكن أن تقوم به من عمل يتلاءم مع هذا الاستعداد الفطرى والتكوين العضوى - هذا الحل الذى أغفل هذه الاعتبارات ومنح مساواة صورية غدا حلاً قاصراً عن خدمة ورعاية المجتمع وقيامها بدور فى التنمية - وأية ذلك أن التلفاز عرض لقطات لنساء استطعن أن ينتسبن إلى فرقة الإطفاء بعد أن اصبح الرأى العام - يسبب ضغوط الحركات النسائية - يشجع مثل هذه الأدوار للنساء أيضاً - غير أن هؤلاء الفتيات على الرغم من الرغبة التى تغلى فى الدماء للمساواة مع الرجل ، وعلى الرغم مما يعتقدون ويقدرون قواهن فإنهن فشلن فى إثبات جدارتهن وصلاحياتهن لمثل هذه المسئولة ، وقد كشف هذه اللقطات عن بعض هذه المثالب ، فتاة تسقط وهى تحمل سلم الإنقاذ ، أو أنبوب الماء لتغطى النيران .

وهكذا مع النتيجة السلبية ، فإن هذه المدارس اضطرت - ثقافياً ومجاملة للحركات النسائية - إلى التخفيف من مستوى التدريب المطلوب ، والتغاضى عن طبيعة الفتاة وضعفها الوظيفى " الفيزيولجى " والنفسى من أجل منحهن حقاً موهوماً ، المساواة والمساومة ، فى أن تلج كل الميادين ، وفى هذه الظروف تنعكس النتائج على سلامة المجتمع بأكمله بحيث يصبح مستوى رجال ونساء المطافئ دون المقتضيات التى تتطلبها مثل هذه المسئولية ، فيتحول هذا الحل إلى تهديد ضد مصلحة المجتمع فالأجدى إذن رعاية لمصلحة المجتمع ، الاعتراف بعدم صلاحية

---

[1] نفس المرجع .

النساء لمثل هذه المسئوليات من أجل المحافظة على مستوى الاستعدادات اللازمة لمجابهة النيران المشتعلة .

ومن هنا – والكلام للباحثة الفاضلة [١] فإن مشكلة المرأة ستبقى قائمة ما بقينا ننظر إليها على أساس عنصر مستقل ، ما لم نبحث عن حل ينسجم وباقى الحلول الاجتماعية ، ولبيان هذا الأمر نقول : إن الكتب التى لم تتصور ولم تصور المرأة على أساس أنها جزء من جوهر المجتمع تكون كمثل الذى يعالج اليد وكأنها ليست عضوا من أعضاء كيان واحد ، إن سلامة اليد – وأن كان لها بعض الحاجات الخاصة بها كتقليم الأظافر ، أو غير ذلك من الحاجات – تعود إلى ممارسات أسباب سلامة الجسد كله ، فإن ضعف الجسد أو ضعفت الصلة التى بينهما .

وبين باقى الأعضاء ، فإنها بدورها تضعف ، لهذا فإذا أردنا أن تنتصر المرأة فى المعركة ضد الشعور المحبط بعد تحقيقها لذاتها فإن علينا أن نجابه الوضع على أساس نظرة شمولية أى على أساس أنه أزمة مجتمع وليس أزمة عنصر أو جنس دون الآخر ومن ثم علينا أن ندرك الجانب الفكرى والثقافى المتسلط على المجتمع عامة ومن ثم متسلطا عليها وقد أشارت إلى ما ذكره الشيخ الغزالى – رحمه الله – فى هذا الصدد قائلا [٢] إن التخلف النفسى والذهنى لا تصاب به الأمم بغته ، وإنما يجئ بعد أمراض تطول ولا تجد من يحسن مداواتها .

ثم تبين [٣] أن العوامل التى تسيطر على المجتمع – ومن ثم على المرأة – ليست منفصلة وإذا كان ولابد من تفصيلها فلبيان أهميتها فقط – على حدة وقد يحتاج الموضوع إلى تفصيل طويل بيد أننا نقتصر على ما أوردته من المعالم المهمة التى جعلت المرأة تفقد ثقتها بنفسها ، الأمر الذى حال بينها وبين شعورها بتحقيق ذاتها ، ثم تشير إلى اهتمام هذه الدراسة بإبراز تدخل تلك العوامل التى جعلت المرأة

---

[1] نفس المرجل .

[2] المرجع السابق .

[3] نفس المرجع .

تشعر بعدم تحقيق ذاتها ولا يهدف إلى تحديد معاناة المرأة – لأن هذا مجـــرد مثـــال فقط ، وإلا فإن أوجه القلق والتخبط الذى تعيشه المرأة كثيرة ومتعددة .

والآن إلى بيان العوامل [١] التى سيطرت علـــى البنـــاء الفكـــرى والثقـــافى للمجتمع وأسهمت فى معاناة المرأة وعدم تحقيق ذاتها وأوجدت مشكلة وقضية مـــن هذه العوامل :-

أولاً : الجهـــل :-

ينبغى أن لا يغيب عن الأذهان أن الجهل نوعان :

أحدهما: جهل بسيط والآخر مركب ، فأما الأول فإن مكافحته والتغلـــب عليـــه أقـــل صعوبة من الثانى لأن صاحبة يدرك هذا النقص الذى يحمله ، أما الثـــانى ، فإن صاحبه لا يدرك حقيقة وضعه ، إما لأنه يحمل أوهاماً يظنها علمـــاً ، أو أنه مصاب بآفة ، تكديس المعلومات أو " غمر الدمـــاغ " أى أنـــه يحمـــل جرثومة تجعله عاجزا عن تحويل معلوماته إلى برنامج تطبيقـــى ومـــن ثـــم تؤدى به إلى مضاعفات أشد خطورة من عـــدم امتـــلاك المعلومـــات ، إنـــه باكتسابه لهذه المعلومات التى أفرغت من فاعليتها يصل إلى تناقض داخلـــى يفرز عدم ثقته بنفسه وبالعلم لتسيطر عليها الأوهام التى تجعلها أداة لخدمـــة أهوائه ومطيعة لغيره " إن مثل هذا الجاهل يغيب عنه الفرق بيـــن الجـــهل ، وحقيقة العلم ، فينسى أن العلم إنما هو من أجل الإذعـــان بالعبوديـــة لله [٢] وتسخير الكون لأداء رسالة وليس من أجل تحصيل ورقة أو شـــهادة يطبـــع منها نسخاً كثيرة بينما يربط صاحبها بالعلم خيط واه ضعيـــف ينقطـــع يـــوم

---

[1] نفس المرجع .

[٢] وكما سبق أن أشرنا أن والآية الكريمة فى قوله تعالى " ولكن أكثر الناس لا يعلمون يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون " فقد أبدلت الآية يعلمون من لا يعلمون فكأنهم بهذا العلـــم الـــذى لم يحقق العبودية لله لا يعلمون وعليه فإن هذا العلم والجهل سواء .

تنقطع صلة بالكلية ، ومن ثم يخرج منه العلم دون أن يهضمه فيتشبع به عقله أو يتمثله سلوكه.

" وهذا النوع من الجهل المركب هو الذى تسرب إلى المرأة ، فهى تطمح إلى تحصيل شهادة يقدرها مجتمع لم يعد يعى مسئولياته ، وكثيراً ما يشجع حركة لا تتقدم به إلى الأمام بل وكثيرا ما تسير به إلى الوراء . أعنى عكس النهضة والتنمية.

فالفتاة اليوم كثيراً ما تجهل طبيعة أدوارها ورسالتها فى رعاية المجتمع وتخطط – أن خططت – لحياتها دون مراعاة إمكانياتها وغايتها ، ولكن طبيعة الحياة ترفض هذا التحدى ، فيصدمها الواقع بالخسائر حين لا تستطيع تحقيق أهداف كانت قد بنتها على أساس من الخيال والأوهام ، ومن ثم تصاب بخيبة أمل ترهقها بالشعور بعدم تحقيق ذاتها .

ثانياً : الأفكار المستوردة :-

لن نبحث هنا فيما إذا كانت هذه الأفكار تصدر إلينا من خلال غزو فكرى شديد وبأساليب شتى من مسارب جلية أو خفية أو أننا بمحض إرادتنا المسيرة فى كثير من الأحيان نختار أن نستعير أفكارا من خارج إطارنا الفكرى والثقافى لتسد به فراغاً لابد أن يملأ شئ ما ومن المؤسف أن كثيراً من هذه الأفكار المستعارة لا يمكن أن تتعايش أو تتفاعل إيجابياً مع باقى الأفكار السائدة ، فينتج عن هذا خليط غير متجانس يحمل جاهليات وأمراض فى شعوب أخرى تزيد رؤية الأمة والمرأة – التى هى محور دراستنا- غشا وضعفاً ونشير هنا إلى أن فشل الأفكار المستوردة قد يعود إلى أحد سببين إما أنها أفكار لم تلق نجاحا فى أرضها فتواجه فشلها بإعلان موتها ، واستبدال أفكار جديدة بها ، غير أن غيابنا عن ساحة الأفكار حال بيننا وبين حضور موكب جنازتها ، فبقينا مفتونين بها ، وإما أنها أفكار صالحة داخل أجوائها الأصلية حيث تحظى بعلاقات تغنيها وتحميها ، بينما تتحول إلى أفكار ميتة أو مميتة فى بنية جديدة تحرمها من تلك العلاقات الأساسية .

وتصور الباحثة سالفة الذكر – الأساسى الذى ينبغى أن تقوم عليه استعارة الأفكار وتقييم حالة المرأة المسلمة عندما استعارت مثلا – زي المرأة الغربية دون أن تراعى هذا الأساس السليم وكيف أنه هذا جعلها تفشل وتخسر ماديا ومعنوياً الأمر الذى ينعكس بالضرورة على التنمية بالسلب – تقول الباحثة رحمة مالك بن بنى:- [١]

لكى تقوم استعارة الأفكار المستوردة على أساس سليم لابد أن تتم وفق منهج يحمى علاقات أساسية ثلاث أى أن تكون هذه الفكرة المستعارة ذات ترابط إيجابى :-

أولاً : مع باقى الأفكار التى تشكل الإطار الفكرى والثقافى فى هذه البيئة الجديدة ، بحيث لا يكون هناك تعارض يؤدى إلى انعدام فاعلية الفكرة أو تأثيرها تأثيرا مضاداً .

ثانيا : مع الأشياء التى تخدم هذه الفكرة وتساعد على تحقيق نجاحها .

ثالثاً : مع الأشخاص أى أنها تكون فكرة تخدم غايتهم وتحترم قيمهم وعلى سبيل المثال ، يذكر أن المرأة المسلمة عندما استعارت من المرأة الغربية زيها الذى بيدي العورة بدل أن بيدى إنسانيتها – قامت باستعارة مشئومة تتحدى هذه العلاقات الأساسية الثلاث ، وهذا الزى إنما يخدم غايات العالم الغربى الذى يبحث عن المتعة الآنية والذى يعانى من أنانيته جعلت المرأة تطرق باب رزقها مستعينة على ذلك بمفاتنها وفى المقابل فإن هذا الزى يشكل خطرا على الامتيازات التى تتمتع بها المرأة داخل الأسرة وفى المجتمع الإسلامى الذى زاده هذا الزى تدهورا وانحلالا من ثم فإن الاستعارات التلقائية التى لا تقوم على أساس من التخطيط والدراسة والبحث السابقة تشكل خطرا يهدد الأفراد بالقليل والأمة بالتنافس ، إن هذه الحقيقة مهما كانت واضحة فإنها لا تزال غائبة عن

---

[١] المرجع السابق .

أذهان حديثة التبعية [٢] والمرأة وسط هذه الأمـــواج المتلاطمـــة مـــن الأفكـــار المستوردة – التى لا تحتوى على الغايات ولا الوسائل – لن تجنى سوى خسائر مادية ومعنوية حينما تحاول تطبيق هذه الأفكار فيكون الفشل حليفها فتشعر أنها لم تحقق ذاتها ، بينما تجهل الواقع وهو أن الأفكار تحمل سبب فشلها .

رابعاً : المطالبة بحقوق وإهمال المسئوليات :

إن الحديث عن الواجبات والحقوق أصبح قاسماً مشتركاً بين المرأة والرجـل ، فكلاهما يحفظ مجموعة شعارات تستهوية بكليمات رنانة وتعده بأمنيات بعيدة عـــن الواقع[١].

وتوضح الباحثة هذه النقطة – أيضاً – التى غدت – كما يقال – كلمة حـــق أريد بها باطل– فقد راح الأغرار يسيرون بها المرأة لتأخذ أو تطالب بما ليس بحقـها بينما تضيع كثيراً من الواجبات التى من المفروض أن تقوم بها مما أثر تأثيراً علـــى التنمية ، وإذا استمر الوضع على هذا الحال فلن تصل التنمية فى أى بلد إلى الوضـــع المنشود– توضح الكاتبة الفاضلة هذا الموضوع موضوع الحقوق والواجبات بعامـــة وبالنسبة للمرأة بخاصة .

تقول [٢] :■ " والحقوق فى الحقيقة ليست إلا ثمرات تأتى نتيجة حتميـــة لأداء الواجبات وهذه العلاقة هى التى أوضحها الله – تعالى – فى كتابه الكريم " وعـــد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين مـــن

---

[٢] سنتحدث عن هذا الموضوع بشئ من التفصيل عند حديثنا عن المعاول التى استخدمها الاستعمار وأثرهـا فى تنحيه القيم الإسلامية عن الإسلام فى تنمية المجتمعات الإسلامية إذا تسع المجال أو فى بحث آخر إن شاء الله .

[١] يردد الآن الذين يدعون إنصاف المرأة والحرص على حقوقها أفكاراً مستورة لا صلـــة لهـــا بالغايـــات ولا الوسائل بالنسبة للمسلم من خلال غزو فكرى يطالب هؤلاء – والعجيب أنهم مسلمون يحملـــون أعلـــى الدرجات العلمية ، ولا عجب فهم يتحدثون باسم الشريعة الإسلامية فيطالبون بأن تحصل المـــرأة علـــى حقوقها التى منها أن تحصل على جواز سفر بدون إذن الزوج بل ويمكن أن تخرج وتســـافر فى أى وقـــت تشاء بدون إذنه ، ولا أدرى أى شريعة يطبقون وبأى مذهب يأخذون وعلى أى دليل يســـتندون .. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

[٢] المرجع السابق .

قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذين أرضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا " النور :٥٥ " يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم وإياى فارهبون " البقرة : ٤٠.

ومن هاتين الآيتين وغيرهما يبدو جليا أن الله - تعالى - أمر الناس بتكاليف أن صدقوا فيها تكفل الله لهم بها حقهم.

وهذا أيضا - ما يقوله (ابن عطا الله السكندرى) فى العلاقة التى تربط بين الواجب والحق " اجتهادك فيما لك وتقصيرك فيما طلب منك دليل على انطماس البصيرة منك"

وتعلق المفكرة السابقة على هذا قائلة [1] " اشتغال الإنسان بحقوقه عن واجباته لن يثمر أبدا . وتلك سنة الله فى عباده ، وهكذا كان مبدأ الأنبياء ، وهكذا كان مبدأ سيدنا محمد ﷺ وعلى آله وسلم - الذى بشر أصحابه بالجنة أن أدو واجباتهم وأخلصوا فيها . ومن المؤسف أن منطق العصر قلب هذا المفهوم ، وأذاب مبدأ الواجبات ، بينما أقر مبدأ السهولة - مبدأ المطالبة بالحقوق.

" ولعل من هذا القبيل منطق الانتخابات الذى يعتمد نجاح المرشحين منها على وعود قلما تتحول إلى واقع ، وفى ظل هذا المنطق - أيضا - ظهرت فى العالم فى البلاد الإسلامية والحركات النسائية التى تزعم السعى لتحرير المرأة والتى استهوت المرأة وسلكت بها سبيل الأماني ، فأغرقتها بحقوق موهومة وأنستها واجباً أساسياً ، ألا وهو ممارسة حرية الإرادة والقرار ممارسة سليمة تراعى مصالحها ضمن مجتمع بأكمله ، وتضمن لها الطمأنينة التى تخلصها من القلق ، ومما نشهد على ما نقوله : أن المرأة حين خاضت غمار هذا المنطق الأعوج وآمنت به خسرت أكثر مما ربحت ووقعت فى الاضطراب ، مثلها فى ذلك مثل قرينتها فى الغرب التى تطالب بأن تعامل فى ساحة العمل على أساس كفاءتها لا على أساس أنوثتها ، وأن تمنح مقابل عملها ما يمنح الرجل.

---

[1] نفس المرجع .

ومن الثابت أنها لن تنال هذا الحق كاملا إلا إذا انتقص منها فى مجال آخر ، مادامت تبدى مفاتنها ، وما دامت لم تقم بواجبها ، فتصلح من حالها وتخرج ضمن حدود زى يجعل العمل إلى جانبها يراها على ضوء ما تقدمه من خدمات ، لا على أساس ما تعرضه من زينتها ومفاتنها .

إن الواجبات والحقوق سلسلة متصلة ، فمسئولية الزوج هى حق الزوجة ومسئولية الزوجة هى حق الزوج وهذه السلسة هى التى تمكن من بنيان مجتمع راسخ على أيدى أفراد يوازنون بين الواجبات والحقوق " وما دامت المرأة تسلك طريق المطالبة بالحقوق فإن خسائرها ستتفاقم حتى أنها ربما أضاعت ما تتمتع به من امتيازات ، فزادها ذلك شعوراً بالقهر والانكسار بعدم تحقيق ذاتها " .

خامساً : سيطرة المادة على النفوس [١] من المؤسف أن الثقافة فى اتجاهها إلى العالمية – أو نحو ما أطلق عليه " القرية العالمية " أصبحت ثقافة يطغى عليها طابع الغرب الغالب ، وكما يقول ابن خلدون " المغلوب يتبع الغالب " ولقد سيطر على واقع العالم اليوم المذهب المادى الذى يسعى لتحقيق المتعة الآنية ولامتلاك الرفاهية .

والغرب اليوم – بانصراف المسلمين عن ساحة الأحداث التاريخية – أصبح يدعم هذه الثقافة ثقافة اللذة والرفاهية بكل ما لديه من وسائل دعائية من أعلام ومجلدات وأفلام ومغنيات – وغير ذلك ، فقد غيرت هذه الثقافة المرجعية قيم أخلاقية إلى مرجعية استهلاكية حتى أن الفرد نفسه تحول – ضمن هذه الثقافة – إلى سلعة استهلاكية ، فلم يعد الكون يسخر لخدمة الإنسان وإنما الإنسان يسخر لخدمة المادية التى تقوم على المنفعة والرغبات النفسية لم يعد الفرد يقاس بما لديه من قيم وما يتماثل من سلوك ، أى أنه لا يقاس وفق مبدأ " أن أكرمكم عند الله اتقاكم " بل أصبح يتصور واقعة وقيمته وفق ما يمتلك أو يستهلك من منتوجات .

" وقد أفرزت هذه الرؤيا المادية القائمة على أساس المنفعة عواقب خطيرة أهمها بالنسبة لموضوعنا تغير مفهوم العمل ، إن كلمة " عمل " بمفهومها اليسير –

---

[١] نفس المرجع .

تعنى أن يسلط الإنسان جهدا للقيام بنشاط ما ، ولكى ندرك هذا التعريف وعلاقته بموضوعنا – ومدى إسهامه حقيقيا فى التنمية – علينا أن نحلل العناصر التى يجب أن تتوافر من أجل القيام بعمل إيجابيا كان أم سلبيا.

العنصر الأول :- الإنسان الذى يقوم بالجهد :-

العنصر الثانى :- الإدارة التى يستخدمها من أجل تحقيق نشاطه .

العنصر الثالث :- الخبرات والمعارف التى ستساعد فى تحقيق النشاط أى الطريقة لتحقيق العمل .

العنصر الرابع :- المبرر والدافع للقيام بالعمل . فإن اختفى واحد من العناصر الثلاثة الأولى أصبح العمل مستحيلا ، وأن انعدم المبرر أصبح العمل عبثاً.

والمرأة اليوم – بسبب الغزو الثقافى – تعانى من نقص العنصر الرابع الذى هو المبرر [١] وذلك لأنها تعيش ثقافة مادية طغت على العقائد والأخلاق ، فأحالت العمل إلى مفهوم ضيق المساحة مرتبطاً وثيقاً بالعائد المادى ، بعد أن كان مفهوماً واسعاً ، أى كما ورد فى القرآن الكريم " وقل أعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون إلى عالم الغيب والشهادة [٢] وبعد أن كان الفرد يبحث عن عمل صالح يجمع بين بعدين : البعد الأخروي الذى يمنحه المبرر ، ويرسى له دعائم

---

[١] فمثلاً الدعوة الملحة لأن تتولى المرأة القضاء ليس لها فى دنيا الواقع ما يبررها لأننى – من جهة نظرى – أفهم أن يكون هذا فى حدود الضرورة حين لا يوجد من الرجال من يقوم بهذه المهمة بكفاءة أو يوجد ولكن بعدد غير كاف ، حينئذ يمكن أن تقوم المرأة بالقضاء فى إطار ضوابط شرعية ، وكذلك يمكن أن تقوم بأى عمل من هذا القبيل لا يناسب طبيعتها كأن تكون ضابطا أو جنديا وما إلى ذلك – كل ذلك يتم فى إطار الضوابط الشرعية " الضرورات تبيح المحظورات إما أن يكون الطلب من باب تحقيق الذات وإثبات الوجود فى هذا المجال انطلاقا من دعاوى المساواة بدون النظر إلى أى اعتبارات فهذا ما لا يصح بل يمكن أن يجلب ضررا ولا يحقق نفعاً ودعك من أن تكون امرأة هنا أو هناك تولت منصبا كهذا فى ظروفا خاصة فهذه الحالات شاذة والشاذ يحفظ ولا يقاس عليه – كما يقولون ، وأبسط ما يقال – كمبرر لعدم تقلد المرأة للقضاء أنها زودت بعاطفة معينة لتقوم بأعظم وظيفة كمربية للأجيال وهى وظيفة لا يستطيع أن يقوم بها أعظم الرجال ، وقد أحسنت إحدى الكاتبات حيث قالت :- لولا عاطفتها – تعنى المرأة ورقة شعورها لاسندا إليها الحكم فى منصة القضاء ، وانظر ملحق جريدة الأهرام يوم ٩٩/٦/٢٥ صفحة المرأة والطفل فى كلمة بعنوان فى ذكرى المولد الشريف للكاتبة " منى عبد القادر .

[٢] سورة التوبة الآية : ١٠٥ .

التوازن ، والبعد الاجتماعى – أصبح اليوم لا يبحث إلا عن عمل لـــه يضمـــن بعـــداً فردياً ومادياً ، أن لم يحصل عليه وقع فى الإضطراب وأرهقه شعور الفشـــل وعـــدم تحقيق الذات وهذا ما يلخص شعور المرأة خاصة إذا لم تسهم فـــى الدخـــل المـــادى للعائلة بسبب طبيعة مسئولياتها الأخرى كأم وزوجة معطاء .

وأخيراً فقد أردنا تقول الباحثة الفاضلة " [١] من خلال هذا البحـــث أن يـــرد موضوع المرأة إلى أبعاده الاجتماعية الصحية وربما كان هذا الجهد خطوة فى اتجـــاه الحل السليم كما أردنا أن لا ينظر إلى المرأة على أساس من التبرئة والاتهام فـــالواقع يصرح بأن كل فرد من أفراد المجتمع يحمل بعض المسئولية فيما نعيشه اليـــوم فـــلا شك أن الأفراد يؤثرون فى الثقافة كما أن الثقافة تؤثر فى تكوين الأفراد .

والمرأة بأهميتها وخطورتها الاجتماعية أصبحت تشغل مساحة كبـــيرة مـــن اهتمام أولئك الذين يخططون لتوجيه أمة بأكملها بقصد تسخيرها لخدمة مصالحـــهم ، وهذا لا يعنى أن نغلق على أنفسنا وأن نحرم أنفسنا من تجارب الآخريـــن " الحكمـــة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بها " [٢] بل أن ننظم العلاقات التى تربطنـــا بالتجارب الأخرى " وواضح أن هذا لن يتحقـــق إلا بإعـــادة تنظيـــم طاقـــة المســـلم وتوجيهها ، وذلك بإعادة قراءة سنن الله فى الكتاب وقراءة ممارسة البشـــــر لـــهذه السنن ومن ثم إعادة تحديد دور المسلم ورسالته فإن أدركنا هذه الحقائق نكـــون قـــد أدركنا معنى الأثر : لا يصلح أخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها .[٣]

وفى ختام هذه النقطة – التى أقدنا كثيراً من هـــذا البحـــث القيـــم للمفكـــرة الألمعية فى هذا المجال معالجة قضية المرأة وما يسند إليها من عمـــل لتـــؤدى دوراً حقيقياً فى إطار التنمية – فى الختام نؤكد على أن الجهود والأعمال والأفكار وما لـــم تنبثق ويلتمس لها من كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ ما يجعله صحيحاً أو مقبـــولاً ، فإنه لم يصلح ، لأنه – أى العمل والفكر – ســـيكون فاســـداً والله لا يصلـــح عمـــل المفسدين ومن ثم فإنه لن يسهم إسهاما حقيقياً فى مجال التنمية بكل أبعادها .

---

[١] المرجع السابق .

[2] تفسير ابن كثير ٣٥/٦ والأسرار المرفوعة /٢٨٤ ط: مؤسسة الرسالة .

[3] المرجع نفسه بتصرف

من أهم الآليات لتحقيق التنمية البشرية نبذ أو تقليل الخلافات والمنازعات البشرية :-

المقرر عند أهل النظر والفكر السليم وبحسب الواقع أن الخلافات بين أفراد المجتمع سواء كان كبيرا بكل مؤسساته وهيئاته أو كان صغيرا يتمثل فى الأسرة - الخلافات بين أفراد المجتمع أو بين هيئاته يذهب بكل جهد ، أو نشاط ، أو سعى نحو التنمية والنهوض يذهب بكل هذا أدراج الرياح وعندما يقرر القرآن الكريم بأن التنازع يثمر الفشل ويذهب القوة التى يعبر عنها بالريح حيث يقول تعالى - مخاطبا المؤمنين " ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم وأصبروا إن الله مع الصابرين " [١] عندما يقرر القرآن هذا ؛ فإن هذا الحكم - وأن كان سبب نزوله معركة حربية هى غزوة بدر فإن العبرة كما يقول الأصوليون : بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ومن ثم فإنه يمكن القول بأن هذا الحكم أعنى الفشل والضعف - ذهاب الريح - المترتب على النزاع والخلاف أقول " أن هذا الحكم يبقى إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها متعلقاً بكل معارك الحياة معارك التنمية والمعارك الحربية ، فحيث يوجد التوحد والاتحاد والاعتصام بحبل الله عند دخول أى معركة تنموية أو حربية يكون الانتصار والتفوق والنهضة وتحقيق الهدف ، والعكس صحيح ومن ثم ساغ لنا أن نقف وقفة مع هذا الموضوع كآلية مهمة من آليات تحقيق التنمية ، وسنفيد من بعض البحوث [٢] التى لها أهميتها فى هذا الشأن ويمكننا أن نجمل هذا الموضوع ونؤسسه على العنصر الأصيل فى هذا الشأن وفى كل شأن ألا وهو كتاب الله وسنة رسوله -ﷺ- فنقول بأن العصمة من الخلاف والتنازع ، وإصلاح ذات البين وحسم النزاع والخلاف أن وجد مرجعية كل هذا القرآن والسنة .

---

[١] سورة الأنفال آية : ٤٦ .

[٢] أنظر بحث بعنوان " آليات تقليل الخلافات بين المسلمين " مجلة المسلم المعاصر ص ١١١-١٣٧ العدد ١٨٥ لسنة الثانية والعشرون د/عبد المنعم شحاته .

وعندما نتحدث عن العوامل التى تنهض للوقاية من الخلاف وحسمه إن وجد - واستخلاصها من القرآن والسنة ؛ فإننا نسير - بأدى ذى بدء - إلى أن واقع الأمة الإسلامية الآن هو أنها مقسمة إلى دول ، لكل منها أولوياتها الحياتية التى تمليها عليها ظروف المعيشة فى هذه الدولة أو تلك ، وأن الدولة الواحدة مقسمة إلى فئات - أحزاب ، أو جماعات - من الأفراد لكل مما أفكارها ورؤيتها الخاصة لقضايا مجتمعها وأمتها ومستقبلها وهذه التعددية لابد أن تكون فى إطار متكامل ، يتعاون فيها الأفراد والمجتمعات والدول لتحقيق حياة يسيرة وآمنة للكل : أى أن يكون الأفراد والجماعات والدول المتعددة فى حالة تعاون وتكامل وليسوا فى حالة صراع وشقاق ، ولكى يتحقق ذلك ، فإننا نرجع إلى القرآن والسنة والرؤى السديدة المستنبطة منهما لمن آتاهم الله الحكم وفضل الخطاب .

ومما دل عليه القرآن والسنة وأرشدا إليه فى هذا الصدد لكى يضمن الوئام ويحقق الوفاق وينتفى الخلاف والشقاق أو يقلل - مما أرشدا إليه ودلا عليه ما يلى :

أولا : [١] أن يعترف كل طرف - دولة أو حزب أو جماعة من الأفراد - أن يعترف كل طرف من أطراف الأمة بحق الأخر فى تبنى الأفكار ، والقيم التى يراها ملائمة لظروف بيئته المحلية وتمليها عليه ظروفه المعيشية " كل يعمل على شاكلته " [٢] " لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً " [٣] .

ثانياً: أن يلتزم كل طرف بعدم السعى لفرض أفكاره وقيمه على الأطراف الأخرى " لا إكراه فى الدين " [٤] أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين"[٥] ولم يكتف القرآن بهذا ، بل نهى فئات الأمة الإسلامية وأفرادها عن استخدام القوة كوسيلة لفرض

---

[١] المرجع السابق .

[٢] الإسراء : ٨٤ .

[٣] المائدة : ٤٨ .

[٤] البقرة : ٢٥٦ .

[٥] يونس : ٩٩ .

أفكار طرف على طرف أخر ، فأصل الإسلام السلم والمودة " يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام"[١] " أدخلوا فى السلم كافة "[٢] وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله "[٣] " والله يدعو إلى دار السلام " [٤] وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما " [٥] .

ليس هذا فحسب بل دعا الله عز وجل عباده المسلمين الذين يخرجون فى سبيله بعدم التسرع فى الحكم على الناس وعدم التسرع فى نفى الإسلام عن المسلمين إذ يأمرهم (يا أيها الذين أمنوا إذا ضربتم فى سبيل الله فتبينوا ولا تقولوا لمن القى إليكم السلام لست مؤمناً " [٦] بل جعل التروى والتبين إحدى نعمه على عبده (كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم فتبينوا) الآية السابقة .

(عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة) [٧]

وحينما فرض الله- تعالى- الجهاد والقتال فى سبيله فإنما فرضه لدفع الظلم والعدوان كما أمرهم الله - جل وعلا - (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا)[٨](وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين)[٩] (فإن قاتلوكم

---

[١] المائدة : ١٦ .

[٢] البقرة : ٢٠٨ .

[٣] الشورى : ٤٠ .

[٤] يونس : ٢٢.

[٥] الفرقان : ٦٣ .

[٦] النساء : ٩٤ .

[٧] الممتحنة : ٧ .

[٨] الحج : ٣٩ .

[٩] البقرة : ١٩٠ .

فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين فإن انتهوا فإن الله غفورا رحيم)[١] (فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا)[٢] (وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين) [٣] (وإن جنحوا للسلم فاجنح لها) [٤] (فإذا كان الله تعالى يأمر عباده بالاكتفاء برد عدوان الكافرين ومسالمتهم إذا جنحوا للسلم ، فمن باب أولى أن يكون السلم هو أساس التعامل مع المحالفين لنا فى الرأى من المسلمين ، ولا يكون القتال للاعتداء على المسلمين الآمنين خصوصا المسلمين منهم ، (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم) [٥] (أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين) [٦] .

ثالثا : رد كل خلاف إلى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ (فإن تنازعتم فى شئ فردوه إلى الله والرسول) [٧] (وأطيعوا الله والرسول) [٨](وما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) [٩] وما أنزلنا عليك الكتاب الألتبين لهم الذى اختلفوا فيه)[١٠] (وما اختلفتم فيه من شئ فحكمه إلى الله) [١١] (فكتاب الله فاصل بين الناس فى كل ما يتنازعون فيه وهدى لقلوبهم ورحمة بها والتحاكم إلى الله ورسوله خير وفصل للخلاف وأحسن عاقبة ومآلا وجزاء)[١٢] .

---

[١] البقرة : ١٩١-١٩٢ .

[٢] النساء : ٩٠ .

[٣] النحل : ١٢٦ .

[٤] الإنفاق : ٦١ .

[٥] الفتح : ٢٩.

[٦] المائدة : ٥٣-٥٤ .

[٧] النساء : ٥٩ .

[٨] آل عمران الآية : ١٣٢ .

[٩] الحشر : ٧ .

[١٠] النحل : ٦٤ .

[١١] الشورى الآية رقم : ١٠ .

[١٢] المرجع السابق .

ولذا جعل المرجعية لكتاب الله وسنة رسوله -ﷺ- مقرونة بالإيمان وجعل عدم التحاكم إلى الله ورسوله دليلا على الفكر " فإن تنازعتم فى شئ فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر .[١]

(فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم) [٢] (وما كان لمؤمن ولا مؤمنه إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم)[٣] .

وقال رسول الله -ﷺ- (إنه من يعش منكم فسيرى اختلافا كثيرا ، فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهدين من بعدى عضوا عليها بالنواجذ) [٤] .

هذه المرجعية - كما يقول المفكر سالف الذكر وقد أحسن فيما قال- لا تكون - فقط -فى حالة الاختلاف بين فردين أو جماعتين وإنما تكون حتى فى حالة الفرد الواحد ، فالإسلام فى المجتمع المسلم هو الإطار المرجعى للفرد أى نسق القيم الذى يوجه سلوكه ، إذ يحتكم الأفراد إلى هذا الإطار عند تقويم فعل أو موضوع ما ، أو تحديد مشروعية الإقدام عليه والإحجام عنه فى ضوء الحكم عليه بأنه حلال أو حرام وتأثر معرفة هذا الحكم تأثيرا ملحوظا فى تصرفات الأفراد وأفعالهم .. ومع هذه المرجعية يوصى المسلمين بعدم المغالاة فى العبادة أو الاستفسار أو التفسير ، أو السؤال لا يؤدى ذلك إلى التشديد والتعنت كما قال سبحانه (يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم) [٥] .

وروى البخارى بسنده عن رسول الله -ﷺ- أن أعظم المسلمين جرماً رجل سال عن شئ لم يحرم فحرم من أجل مسألته " [٦] وروى ابن عباس -رضى الله

---

[١] النساء : ٥٩ .

[٢] النساء : ٦٥ .

[٣] الأحزاب : ٣٦ .

[٤] المعجم الكبير للطبرانى ٢٤٩/١٨ ، الترغيب والترهيب ٧٨/١ ، ط : الحلبى .

[٥] المائدة : ١٠١ .

[٦] فتح البارى ٢٢١/٨ ومسلم باب الفضائل ١٣٢ و١٣٣ .

عنهما - عنه - قوله (إياكم والغلو فى الدين فإنما هلك من كان قبلكم بالغلو فى الدين "[١] هذا - وفى إطار المرجعين السابقين وإنطلاقا منها ننبه إلى مبدأ مهم فى حسم النزاع والاختلاف ، ألا وهو تأكيد حسن الظن[٢] المتبادل ، واعتماد الحوار كوسيلة للتعامل مع المخالفين ، وهو غير الجدل الذى يحمد إذا تم برفق ولين واستهدف إيقاظ القلوب وموعظة النفوس وجلاء العقول كما يقول الإمام الغزالى [٣] وهو الذى حث عليه القرآن حين قال "وجادلهم بالتى هى أحسن "[٤] ويستهجن إذا كان غير ذلك وهو الذى أشارت إليه الآيات (وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق)[٥] " ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق "[٦].

ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير "[٧] وهذا الجدال المذموم هو الذى يحدث شقاقا وضغائن[٨] واختلاف ومن ثم لا يتحقق مع وجود نهضة أو تنمية.

أما الحوار[٨] وهو الذى يتعاون فيه المتحاوران فى تناول موضوع ما ، والوصول معا إلى حكم يكون صحيحا وصائبا وإذن فإن الحوار عبارة عن جدال بالتى

---

(١) مسلم باب الحج ٣٠٢٠ ، سنن ابن ماجه ٣٠٢٩ ، مسند أحمد ٣٤٧/١ ، سنن البيهقى ١٢٤/٣

(٢) المرجع السابق .

(٣) نفس المرجع .

(٤) النحل :١٢٥

(٥) غافر : ٥ .

(٦) الكهف : ٦ .

(٧) سورة الحج الآية : ٨ .

(٨) وصف الإمام مالك - - هذا الجدال - والمقصود به الجدال المذموم - وصفه بأنه " يقسى القلب ويورث الضغن ، والمراء والجدال فى الدين يذهب بنور العلم من قلب العبد ، فالجدال يبعد المتجادلين عن حقيقة الدين وكلما جاء رجل أجدل من رجل تركنا ما نزل به جبريل ، مرجع سابق نقلا عن ، تاريخ المذاهب الإسلامية للشيخ / محمد أب زهرة .

(٨) المرجع السابق نقلا عن مفتاح الجدل فى القرآن د/ زاهر الألمعى .

هى أحسن وخلاف لا يثمر خصومة ، ولا يورث بغضاء ، والآيات الكريمة تشير إليه مثل قوله تعالى - (وجادلهم بالتى هى أحسن)[١](ولا تستوى الحسنة ولا السيئة أدفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم) [٢] (ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن) [٣] (ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم) [٤] (لا يحب الله الجهر بالسوء من القول)[٥] وكيف يعرض المؤمن عن الحوار والله تعالى - يحاور الكفار مع كفرهم فإنه جل وعلا يرشدنا من خلال القرآن الكريم إلى آداب الحوار معهم ، فكيف بالمسلمين الذين يخالفوننا فى الرأى .

أن القرآن الكريم يعلمنا أن نتحاور مع المخالفين الكافرين وبالأحرى مع تحقير وجهة المسلمين مع الحرص على الذى علمه ربه كيفية التحاور مع الخصوم فأنزل عليه قوله - تعالى - نظرهم أسوة برسول الله -ﷺ- (وأنا أوإياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين) [٦] (ولقد بلغ الشافعى -رحمه الله- الغاية فى التلطف والتسامح بالمخالف وغدا قوله المشهور (رأيى صواب يحتمل الخطأ - ورأى غيرى خطأ يحتمل الصواب) غدا هذا القول دليلا على ما ذكرنا وقاعدة فى الحوار البناء الذى تتحقق معه التنمية البشرية على حقيقتها) [٧].

ويعلمنا القرآن الكريم - أيضاً - أن ينأى كل من المتحاورين عن السخرية بعضهم من بعض أو تجريح بعضهم بعضا - وأن يبتعدوا عن الهجوم الشخصى

---

[١] النحل : ١٢٥ .

[٢] فصلت : ٣٤ .

[٣] العنكبوت : ٤٦ .

[٤] الأنعام : ١٠٨ .

[٥] النساء : ١٤٨ .

[٦] سبأ : ٢٤ .

[٧] راجع الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم القرضاوى .

مركزين على موضوع الحوار عملاً بالحديث الشريف (ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذيئ) [١] .

بل يكون ليناً فى الحديث رقيقاً كما أوصى الله موسى وهارون " رقة الخطاب مع فرعون " فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى) [٢] .

ولا يقف الأمر عند هذا الحد ، بل ينصح الرسول -ﷺ- أتباعه بـ(الرفق والقول السديد ، ولا يكن (المحاور) فظا ولا متكبرا ولا حسودا) فالرفق (لا يكون فى شئ الإزانه ولا يفزع من شئ إلا شانه) .

وأن يكون الحوار موضوعياً هادفاً ملتزماً بالأدلة والبراهين " قل هاتوا برهانكم كنتم صادقين " [٣] قل هاتوا برهانكم [٤] وكما قال -ﷺ- البينة على من أدعى [٥] أى عليه تقديم صدق دعواه [٦] .

هذا وفى ختام حديثنا عن بعض ما يتعلق بمنهج الإسلام فى تحقيق وحدد الأمة والعمل على تجنبها النزاع والخلاف ، وحسم هذا الخلاف أو تقليله إن وجد فى ختام حديثنا عن هذا يجدر بنا أن نشير إلى نقطة مهمة تتمثل فى أن الإسلام تتسع تعاليمه لمجتمع يتعايش يكون محكوماً به وبشريعته ويشتمل على مخالفين له فى العقيدة ، ويعد هؤلاء المخالفون جزءا من الأمة ومن نسيجها ، بل يمكن أن يكون هؤلاء المخالفون يدينون بدين أمة أخرى تعادينا ومع هذا يمكن قبولهم ومُعايشتهم ، بل والبر بهم شريطة ألا يتعاونوا مع من يدينون بدينهم فى الدول الأخرى ولا يظاهروهم على المسلمين أو يقاتلوهم .. وهكذا يقرر الإسلام التعددية وقبول الآخر ،

---

[١] الحديث فى مسند أحمد ٤٠٥/١ ، وسنن البيهقى ١٩٣/١٠ .
[٢] طه : ٤٤ .
[٣] سورة البقرة الآية : ١١١ .
[٤] سورة الأنبياء الآية : ٢٤ .
[٥] السنن الكبرى للبيهقى ١٢٣/٨ ، سنن الدار قطنى ٢١٨/٤ .
[٦] آليات تقليل الخلافات بين المسلمين مرجع سابق .

ولعل أصرح آية تدل على ذلك هى قول الله -تعالى - (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم أن الله يحب المقسطين) [١]

أما إذا نظرنا إلى حال الأمم الأخرى غير الإسلامية - فى مقارنة عابرة - فى هذا المجال فإننا نرى أن هذه الأمم تنكر التعددية سواء كانت تعددية حضارية ، إذ ينكر دعاة الكونية تعدد الحضارات مطالبين بضرورة أنصهارها فى حضارة واحدة تسود العالم ، أو كانت تعددية دينية ؛ فعل سبيل المثال ينكر اليهود النصرانية ، وينكر النصارى اليهودية الآية ١١٣ من البقرة [٢]وكلاهما ينكر الإسلام (الآية : ١٢٠ من سورة البقرة)[٣] ماعدا أمة الإسلام وحدها التى تعترف بالتعددية الدينية والاجتماعية وقبول الآخر بل لابد- لكى يكتمل إيمان المسلم - أن يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا تفرق بين أحد من رسله)[٤].

(قولوا آمنا بالله .. وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم)[٥] (قل آمنا بالله .. لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون)[٦] "والذين آمنوا بالله ورسوله ولم يفرقوا بين أحد منهم) [٧] لذا يؤمن المسلمون بالتعددية ، أما الآخرون فينكرونها فعلى سبيل المثال : وصف الله -تعالى - اليهود والنصارى بقوله " ولن

---

[١] الممتحنة : ٨

[٢] يقول تعالى : وقالت اليهود ليست النصارى على شئ وقالت النصارى ليست اليهود على شئ .

[٣] يقول سبحانه : ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم .

[٤] سورة البقرة الآية : ٢٨٥ بقوله سبحانه " آمن رسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نتفرق بين أحد من رسله .

[٥] البقرة : ٣٦.

[٦] آل عمران : ٨٤ .

[٧] النساء : ١٥٢ .

ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم) [١] (ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم) [٢] (ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم) [٣] (ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء)[٤] .

(لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا)[٥] ومع كل هذا العداء يحث الإسلام على معاملة أهل الكتاب بالحسنى (ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون)[٦] (لنا أعمالنا ولكم أعمالكم) [٧] (لكم دينكم ولى دين) [٨] بل وجعل الخطاب اللين وسيلة التعامل مع أشد الكافرين ظلما - كما أشرنا - حينما أوصى - سبحانه - موسى وهارون أم يقولا لفرعون قولاً لينا)[٩] وقال لرسوله محمد -ﷺ- أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين [١٠] - أن السلام والتألف والاجتماع والتفاهم الحقيقى بين الشر بطوائفه ، وأديانه ، ومذاهبه لن يتم إلا فى ظل الإسلام حيث يكون الاستقرار الذى يضمن تنمية حقيقة ، أما المذاهب الوضعية القاصرة [١١] والأديان المحرفة ، هى التى بسبب من قصورها ، وعجزها ، ورؤيتها المحدودة وهوى أصحابها وضعت الفردية ، والجماعات فى حالة تنازع ،

---

[١] البقرة : ١٢٠ .

[٢] البقرة : ١٠٥ .

[٣] آل عمران : ٦٩.

[٤] النساء : ٨٩ .

[٥] المائدة : ٨٢ .

[٦] العنكبون : ٤٦ .

[٧] الشورى من الآية :١٥ .

[٨] الكافرون : ٦ .

[٩] طه : ٤٤ .

[١٠] يونس : ٩٩، وأنظر المرجع السابق ، ص ١٢٢ ، بالهامش .

[١١] راجع رؤية إسلامية فى قضايا معاصرة ، ص ٨٥ ، ٩٥ ، د/ عماد الدين خليل .

واقتتال وخصام وحكمتها بقانون " إما هذا أو ذاك " وكأن ليس ثمة حالة أخرى أكثر موضوعية وعدلا ، تلم القطبين معا ، وتتعامل معها بنفس الدرجة من العناية والاهتمام .

وهكذا صارت ساحات الوضعين ، ومحرفى الأديان وبخاصة فى أوروبا تشهد سلسلة لا آخر لها من الأفعال ، وردود الأفعال ، التى بعثرت الكثير من الطاقات وضيعت أجيالا بكاملها وهى تتخبط بين القطبين ، متوهمة أن نجاتها لن تكون إلا بالاندفاع مع أحدهما ، حتى إذا تبين خطأ اندفاعها الأحادى هذا ، وتجرعت مرارته واحباطاته ، عادت لكى تندفع فى الاتجاه الآخر ، بنفس العنف ، وبالرؤية العوراء ذاتها ، ولكن تتجرع حفنات أخرى من المرارة والاحباط .

(أن فرادنية النصرانية المحرفة ، والرأسمالية الجائرة ، والوجودية البائدة ، من جهة وجماعة الاشتراكيات الطوبائية الحالمة ، والشوفينيات العدوانية الطاغية ، والشيوعية المستبدة لتعطينا مجرد شواهد على ما شهدته الساحة الأوروبية من تضاد بين الأفعال وردودها ومن ذهاب وإياب ، بين طرفى المعادلة : الفردية والجماعية ،، والمصير الذى انتهت إليه هذه المحاولات جميعا ثم القيام المتخبط كرة أخرى ، للبحث عن البديل ، ولن يكون البديل والحالة هذه - متوازنا شاملا ، يلم القطبين ، وينقذ الإنسان الحائر من ورطته وضياعه ، طالما أنه يصدر عن الإنسان ، ذى القدرات المحدودة ، والرؤية النسبية ، والاستشراف المنقوص ، فليس ثمة إلا الدين القادم من عند الله ، يقدر على تجاوز هذا التأرجح المحزن ، ويقود الإنسان فردا وجماعة ، إلى شاطئ الأمام ، ويأوى به إلى العالم المتوازن ، الذى تلتقى فيه ، وتتصالح وتتآلف سائر الأطراف . [١]

نعم أن الدعوة الإسلامية هى التى تقود الإنسان إلى شاطئ الأمان وتحقق له التنمية الحقيقة ، بحيث يمتد أثرها إلى الدار الآخرة فتكون السعادة الحقيقية ، ومن

---

[١] المرجع السابق .

ثم فأننا عندما تقرر - كما يشهد الواقع بأن (الحضارة الغربية) مختلفة عنا فى نظرتها للوجود والكون إذ أنها قائمة على أن الوجود هو الدنيا والموت هو العدم وبالتالى فغايتها تعظيم المتاع الدنيوى الذى يتمثل فى (قوة المال وجاه السلطة ، راحة الرفاهية ، لذة الإثارة الحسية) حينما نقرر هذا ونقرر - أيضا - بأنها اظهرت كفاءة وقدرة فى سبيل تحقيق هذه الغاية وقدراتها التقنية التكنولوجية جزء من هذا - نبادر فنقول : بأن هذا كله لم يمن لهم تنمية حقيقة لأن التنمية الحقيقة ، كما نتصور - لابد أن تحقق السكينة والأمان ، ونضمن راحة بال مهما كان حظ الإنسان من الثروة ، والملكية محدودا لأن التنمية بمفهومها المادى مالم تحرسها قيم نابعة من الدين الحق الذى نزل من عند الله يكون التنازع والتشاحن ، والاختلاف الذى يذهب براحة الإنسان النفسية ، ويظل فى شقاء لا نهاية له ما لم يتداركه الله برحمته ويهديه إلى واحة الإيمان .

ولعلنا - بعد هذا العرض - نكون فقد ألقينا الضوء على هذا الأمر المهم كآلية من أهم الآليات لتحقيق التنمية - وأعنى به (نبذ الخلافات أو تقليصها والقضاء عليها أن وجدت وبخاصة إذا أثمرت الشقاق وصدرت عن الهوى ولم تكن للوصول إلى الحق وتحقيق النفع والتنمية والنهوض للأمة والبلاد والعباد .

من أسباب تنحية القيم الإسلامية عن الإسهام فى التنمية البشرية :

ما قدمنا - وأن كنا حديثا طويلا - كما قد يراعى القارئ - فإنه يعتبر أشارت فى هذا المجال وعبارة عن مفاتيح يمكن أن تستخدم لفتح أبواب وموضوعات فى هذا المجال على أن يشترك فى الولوج إلى هذه الأبواب متخصصون فى مجالات مختلفة ليبينوا كيف أن الإسلام - بحق كفيل بأن يحقق للبشرية ما تطمح إليه من تنمية ونهوض وسعادة ، لأنه لا يستطيع مثلى وكثيرون غيرى أن يقوموا بهذا العبء ، وحسبى وحسب كل من يجتهد أن يسهم بقدر ما يستطيع ليجلى عظمه الإسلام وعطاءه الذى لا ينقطع إلى يوم الدين ، وقبل أن أختم هذا البحث أرانى مشغولا بسؤال أحاول الإجابة عليه يتعلق بهذا الموضوع وهو : ما السبب فى تنحية القيم الإسلامية وعدم إعطائها الفرصة للإسهام فى تنمية المجتمعات البشرية ؟ وربما

يكون وراء هذا السؤال والدافع إليه أمر كاد أن يصبح ظاهرة وهو حرص الإعلام المسموع أو المرئى على أن يستضيف كل من يرى أن له رؤية وتصورا فى مجال التنمية أو خدمة المجتمع فى أى مجال - وللأسف فإن أغلب هؤلاء علمانيون لا يعرفون من الإسلام إلا أسمه وقد يتحدث الواحد منهم على استحياء عن الإسلام أو مبادئه هذا إذا حدث وتحدث أقول : - يحرص الإعلام على استضافة أمثال هؤلاء ولا يجعل فى برامجه وهو يعالج هذه الموضوعات من يستضيفه من علماء الإسلام الذين لهم دراسات ورؤى ثاقبة تنبع من الإسلام ومبادئه فى هذا المجال وما أكثرهم وللإجابة على التساؤل سالف الذكر نقول : أن المعاول [١] التى استخدمها الاستعمار (التنصير) البعثات الدراسية إلى الخارج وسائل الإعلام نشر المدارس الأجنبية فى البلاد الإسلامية ، والاستشراق ، قد تضافرت فى الإجهاز على الكيان الإسلامى وعلى الشخصية الإسلامية فإن حركة الاستشراق الماكرة ، قد كان لها الدور الفعال فى بث السموم ونشر الأباطيل التى تفعل فعلها المدمر فى عقل المسلم ونفسه ، وتحوله إلى جسم مشلول أو مقطوع الصلة بأمته وكيانه الحضارى الأصيل بل أكثر من ذلك تجعله يتحول إلى عنصر هدم وتدمير فى بناء الأمة بحيث يتنكر لها ويناصبها العداء.

ولقد وجه الدارسون للإسلام والحضارة الإسلامية من المستشرقين جهودهم إلى تمهيد نفوس المسلمين لقبول واستقبال اليهمنة الأوربية بكامل الرضى والاطمئنان .

والإقرار لها بالولاء ، ومعنى ذلك بل وسيلة ذلك هى أضعاف القيم الإسلامية وتقديم مشروع وتأويلات تعسفية ومشوشة لمفاهيم الإسلام وقواعده ، وصولاً بشباب المسلمين إلى مرحلة الشك واهتزاز القيم بتعاليم الإسلام وقداستها و (رينان) على سبيل المثال يصور عقيدة التوحيد فى صورة قائمة تجعل منها عامل قلق وحيرة ، وهى التى توحد القلوب والمشاعر وتصنع التماسك بين الأفراد .

---

[١] انظر القيم الإسلامية والتربوية والمجتمع المعاصر ، ص ٨٨ ، وما بعدها .

أن السموم الناقعه التى داب المستشرقون ، ويعمل تلامذتهم الآن فى ديار المسلمين – على نفثها قد آتت أكلها وأعطت ثمارها المرة فى صفوف أجيال الشباب الإسلامى ، وأخطر وسيلة اتخذت لذلك قنوات التعليم التى يمارس من خلالها المعلمون والأساتذة ، أثرهم السحرى فيخرج على أيديهم أجيال فارغة الفؤاد ، بليدة الإحساس يصدق عليها بحق قول المفكر والشاعر الإسلامى الكبير محمد إقبال [١] رحمه الله : أن الشباب المثقف فارغ الأكواب ، ظمآن الشفتين ، مصقول الوجه ، مظلم الروح ، كليل البصر ، ضعيف اليقين ، كثير اليأس ، لم يشاهد فى هذا العالم شيئا هؤلاء الشبان أشباه الرجال ولا رجال ينكرون أنفسهم ويؤمنون بغيرهم أن المدرسة قد نزعت منهم العاطفة الدينية وأصبحوا فى خبر كان ، أجهل الناس لنفوسهم وابعدهم من شخصياتهم ، شغفتهم الحضارة الغربية فيمدون أكفهم إلى الأجانب ليتصدقوا عليهم بخبز شعير ، ويبيعون أرواحهم فى ذلك أن الافرنج قد قتلوه من غير حرب وضرب ، عقول وقحه وقلوب قاسية وعيون لا تعف عن المحارم وقولب لا تذوب بالقوارع ، كل ما عندهم من علم وفن ودين ، وسياسة ، وعقل ، وقلب ، يطوف حول الماديات ، قلوبهم لا تتلقى الخواطر والمتجددة ، أفكارهم لا تياوى شيئا حياتهم جامدة واقفة – متعطلة بين الشعوب ذاتها [٢] ولدينا " الفاتيكان " تعبير واضح عن هذا وإذا كان الأمر كذلك فى الغرب ، فإن الدين فى العالم الإسلامى – وربما غاب هذا أيضاً عن منظمى الندوات عن المجتمع المدنى والجمعيات الأهلية . ودورها فى التنمية ... الخ .

ربما غاب عنهم " أن الدين فى العالم الإسلامى خاصة يمثل الآلية الرئيسة للتجديد والتحدى – ومن ثم فالحديث عن مجتمع مدنى الآن يعنى استحضار المضامين الغربية ليزرع المصطلح ، والتى تطرحه فى وجه (الثيوقراطية للكنيسة)

---

[١] المرجع السابق وقد نقله صاحبه عن أبى الحسن الندوى نحو التربية الإسلامية الحرة ، ص ٥١ ، ٥٢ .

[٢] المرجع السابق نقلا عن مقال : فهمى هويدى بعنوان " محنة العمل الأهلى " بالأهرام ٩٧/١/١٤ .

أم أن مفهوم الدين فقد تغير فى الغرب وهو اساس فى العالم الإسلامى ، ومن ثم فإنه لا يعنى " مدنى " فى مواجهة الدين ، وفى الواقع فإن تعبير المجتمع الأهلى ، يبدو أكثر اتساقا مع الخبرة العربية الإسلامية ، وهو يتضمن داخله معنى التعاضد والمساندة والرحم ، ولا يستبعد تعبيرات مجتمعية فاعلة مثل الأسرة القبلية ، والتى تؤدى أدوارا اجتماعية وسياسية مهمة فى عالمنا العربى والإسلامى ، وبالطبع فإنه يستند إلى العمل التطوعى المستقل عن الدولة ، وقد يعبر فى حد ذاته عن أبناء دين واحد ، أو يكون مفتوحاً لكل أبناء الوطن تبعا لطبيعة مؤسساته ، ولا يبدو فى نظرى[١] على المستوى العلمى من صالح المجتمع الأهلى استبعاد الدين كمكون أساسى له ، فالاحصائيات تشير إلى أن ٧٥% من مجمل الـ١٧ ألف جمعية أهلية فى مصر هى جمعيات خيرية ٥٠% منها إسلامية ٩% منها قبطية [٢] وتحتل الأنشطة الدينية المرتبة الثانية بعد الأنشطة الخيرية على الرغم من التدخل القائم بين الدين والخيرى .

إنه لا يبدو فى التقدير السليم أن المراهنة ناجحة على رجال الأعمال كمصدر لتحويل أنشطة الجمعيات الأهلية من منطلقات سياسية ، مثل تحقيق تطور ديمقراطى فى البلاد ؛ إنما المراهنة الأساسية لتنشيط موارد المجتمع الأهلى تنبع من استثارة الحس الدينى ، وتمثل الزكاة والصدقات مجتمع يستمد شرعيته من الدين ، ويستمد حياته منه -أيضا- وإذا كان هذا يصدق بقوة على الماضى فإنه لا يزال له نفس قوة الصدقية فى الحاضر والمستقبل أيضاً .

تبنى العلمانيين مناهضة الدين كرد فعل للتطرف :

يطيب لمن فى قلوبهم مرض أن يحققوا أهدافا رخيصة على حساب الإسلام بحيث ترى من يتودد لمسئولين بأنه ضد التطرف والتعصب والعنف ، فينسلخ من

---

[١] نفس المرجع .

[٢] المنار الجديد مرجع سابق نقلا عن : شهيدة الباز " المنظمات الأهلية العربية على مشارف القرن الحادى والعشرين ، لجنة المتابعة لمؤتمر التنظيمات الأهلية العربية القاهرة:١٩٩٧م

الإسلام فى كل أحاديثه فى أجهزة الإعلام مذيعا أو متحدثا - يظهر بسمته وحديثه أنه يخاصم الإسلام ولا يذكر له رأيا فى قضية من القضايا .

خذ - مثلا - موضوع التنمية التى عقدت من أجله الندوات ، ويؤتى بمتحدثين يحاول الواحد منهم أن يشعرك بأنه بكل شئ عليم إلا ما يتعلق بالإسلام ، يتحدثون عن المجتمعات الأهلية ، والمجتمع المدنى والأهلى ، وإلى أى مدى يكون إسهام المجتمع أو الجمعيات فى التنمية ويغفل مقدم البرنامج ومعده رأى الإسلام فلا يعمد إلى عالم من العلماء الأجلاء ، وما أكثرهم ليعرف المستمع أن هذه المستجدات كلها التى تتعلق بالخدمات وتبنى المجتمع وتنميه ، لم يكن يعرف العالم عنها شيئا - ولا يزال يجهلها على حقيقتها - إلا عن طريق الإسلام ولقد قلت إنهم يتبارون فى إظهار موالاتهم لكل ما هو بعيد عن الإسلام حتى لا يوصمون بالتطرف ، بل يذهبون إلى أبعد من ذلك حين يتحدثون عن شعارات ويرددون كلمات ما أنزل الله بها من سلطان ليكون التنوير أو الفكر المستنير وليتهم يطلقون التطرف على كل من انحرف الإسلام وتطرف ناحية التحلل ، فإن التطرف يشمل طرفى قصد الأمر أعنى من يغلو فى تطبيق الإسلام ويبالغ ويتزمت ويخرج منه عن سماحته وصفائه ، ويشمل الطرف الآخر وهو من ينحرف عنه فيتحلل منه ويخرج عن مبادئه ، وينتسب إليه اسما فقط وعنواناً وشعاراً ، ولكنه أبعد ما يكون عنه ، كلاهما متطرف ، فإذا قصد بالفكر المستنير ، والتنوير - فهم الإسلام فهماً صحيحاً والأخذ به كما فهمه العلماء والفقهاء استنباطا من الكتاب والسنة لو قصد بالتنوير هذا لكان جديرا بهذه التسمية وكان مقبولا ، أما أنه يعنى شيئا آخر وهو التفلت من الإسلام ، والبعد عن قيمه وتحكيم الأهواء والجرى وراء كل ما يخاصم الإسلام ولم يأذن به الله فهذا يوصف بأنه فكر ظلامى يعود بنا إلى الجاهلية التى بعدت عن وحى السماء واحتكمت إلى شريعة البشر القائمة على الأهواء والناتجة من العقول القاصرة .

لقد ظن هؤلاء الظلاميون فى لحظة انفعالهم بالكراهية لشريعة الإسلام أنه يقلدون غيرهم من الغربيين فى الإنسلاخ من الدين تحقيقا للتقدم والنهوض والتنمية الزائفة وغاب عنهم أن التحول التاريخى الغربى ناحية اللادينية " العلمية " واستبعاد

الدين من مجالات الحياة وفى قلبها السياسة والاجتماع - كان لحظة طارئة ، لم تعبر عن استمرارية فى التاريخ الغربى ، إذ يلعب الدين اليوم دورا كبيرا فى الحياة السياسية والمجتمعية ، بل وفى العلاقات .

هذا - وإذ يبدو العنف يدعون الإسلام كسب أو مبرر لأن تتدريج الدولة به[١] من خلال أجهزة الإعلام ، فلا تجد المساحة الكافية للبرامج الدينية التى تهدى وتنور التنوير الحقيقى ، وإذا وجد برنامج أو أكثر فإنه فى المقابل تجد برامج أخرى مبتوتة الصلة بعقيدتنا وهويتنا تأتى على ما تحدثه البرامج الدينية من أثر فى المستمعين والمشاهدين وبخاصة الشباب .

وإذ يبدو العنف - أيضاً - سببا تتذرع به الدولة لاستمرار قانون الطوارئ مما يترتب عليه التضييق على المجتمع الأهلى - وهذا - أعنى استمرار قانون الطوارئ - حق الدولة وبخاصة فى الظروف التى تستدعى حماية الوطن واستقراره، وهو اتجاه الدولة على أعلى مستوى ، وأن كان يحدث تجاوزات ممن ينفذون أحيانا إذ يبدو العنف وما يتمخض عنه هكذا بالإضافة إلى تعميق روح السلبية وفقدان الأمل - لذا فإن غياب العنف وسيادة روح السلم والأمن تؤدى إلى مجتمع أهلى قوى ، وقوى المجتمع الأهلى تمثل صمام للسلم والتراحم فى المجتمع ، أى أن هناك علاقة متبادلة بين غياب العنف وقوة المجتمع الأهلى ، ولا شك أنه مع التطور المجتمعى ووجود مجتمع أهلى قوى سوف يكون دعامة لمنع تفجر العنف ، لأن المجتمع الأهلى القوى سوف يؤدى أيضاً إلى تفكيك الأمراض المتفشية فى البنية المجتمعية ، كما سيؤدى إلى استيعاب ما أطلق عليه " فائض الطاقة " لدى الشباب بالذات - بشكل سلمى وهو ما يمنع تفجر العنف .

آليات تقوية المجتمع الأهلى :

وقبل أن نختم هذا البحث أجد من المناسب أن أعرج على هذه النقطة المهمة

---

[١] المرجع السابق نقلا عن د/ وحيد عبد المجيد " الأزمة المصرية " مخاطر الاستقطاب الإسلامى العلمانى " القاهرة القارئ العربى " بتصرف يسير .

والتى تتعلق باستقرار المجتمع الأهلى وتقويته لتحقيق التنمية الحقيقية وأعنى بها آليات أو عناصر تقوية المجتمع فى ظل رؤية أحسب أنها - مع شئ من التحفظ - مقبولة تتكون عناصرها فيما يلى :-

أولاً : وقف الاستقطاب الإسلامى - اللادينى - بحيث يتفق الطرفان على قواعد عامة مشتركة تضع الدين كأساس للمشروع الإسلامى موضع قبول من القوى اللادينية له باعتباره إطاراً مرجعيا ، بينما تضع الالتزام بحقوق الإنسان والتداول السلمى للسلطة ووضع حقوق الأقليات والمرأة موضع الاعتبار والاحترام من قبل الإسلاميين ، وفى الواقع فإن القواعد الكبيرة من القوى اللادينية تعتبر الإسلام كأساس للحضارة العربية ، وتقبله كإطار مرجعى بحيث لا تعنى الديمقراطية لديهم سلطة للشعب تبلغ تحليل الحرام وتحريم الحلال [١] كما أن القاعدة الكبيرة من الإسلاميين لا تطرح مشروعها باعتباره مشروع " ثيوقراطيا " وإنما يقدمونه بحسبانه مشروعا حضاريا إنشائيا ، يقع الاجتهاد منه فى القلب ، حيث سيواجه الواقع بآلية الاجتهاد التى تفترض أعمال العقل على أوسع نطاق ممكن وحيث يتم الاجتهاد تتعدى الرؤى .

ووجهات النظر ، بحيث تكون المقاصد الكلية للشريعة هى الحاكم للأفعال ، وفى هذه الحالة فإن المشروع الإسلامى هو مشروع إنسانى عقلانى إطاره ومرجعه الشريعة وفى الواقع فإن ملاحظة بعض الباحثين فى تفسير أسباب العنف بأن مصر تعيش حالة فريدة منن الغلو الدينى فى مواجهة الغلو اللادينى صحيحة " [٢] فهناك اجتراء " لا دينى " على ثوابت الأمة وتراثها ، وهو ما يؤدى إلى استفزاز الحسى

---

(١)نفس المرجع نقلا عن د/ محمد عماره ندوة العنف التى عقدتها جريدة " الشعب " المصرية .

[٢] نفس المرجع نقلا عن د/ محمد عماره ندوة العنف التى عقدتها جريدة " الشعب " المصرية.

الوطنى ، ولا بد من إيجاد أرضية مشتركة تمثل ثوابت للعمل السياسى والحركة المجتمعية ، بحيث ذلك إلى نفس الغالبية من التيار الإسلامى والتيار اللادينى معا .

ثانياً : مع تحفظنا على تسمية بعض الاتجاهات الحزبية بالإسلامية ، لأن المجتمع يضم غيرهم من المسلمين ، والكل مسلمون ، ولا أرى حاجة ولا سببا وجيها لتسمية هؤلاء إسلاميين لأنهم كذلك بدون أن يرفعوا الشعار ولأنه يعنى ضمناً أن غيرهم من المسلمين ليسوا إسلاميين أقول : مع تحفظنا على هذه التسمية ؛ فإنه ينبغى أن تتاح الفرصة لمن لم يرفعوا هذا الشعار . إذا لم يتجاوزوا الخطوط الحمراء والتزموا بمنهج الإسلام الصحيح فى تحقيق أهدافهم المشروعة ، والتى تتعلق بخدمة المجتمع وتنميته ومحاربة الفساد الذى يعوق هذه التنمية لأنه لا يمكن تقوية المجتمع الأهلى بدون مشاركة هؤلاء ، كما أن مشاركتهم سوف تؤدى إلى تدعيم التطور الديمقراطى فى البلاد ، وتؤدى -أيضا - إلى استبعاد العنف كأداة سياسية كنوع من الاحتجاج على الاقصاء ، أو اعتماده لتحقيق مشروعه السياسى حيث إنه - والحالة هذه - لا توجد أمامه أو فرصة سلمية يعبر من خلالها عن أفكاره أو يتخذها كأداة بديلة عن العنف لتحقيق مشروعه وقد نقل " كمال السعيد حبيب " عن " أمانى قنديل " [1] ما ذكرته من أن قبول الاخوان المسلمون لقواعد اللعبة السياسة ومشاركتهم فيها حتى فى غياب شرعيتهم الحزبية ، قلل من احتمالات اتجاههم نحو استخدام العنف ، كما أن حصار الدولة ومنعها للنشاط الإسلامى فى النقابات المهنية قد يزيد من احتمالات استخدامهم للعنف ، وتضيف أن الإسلاميين يحرصون على التواجد فى النقابات كبديل للأحزاب السياسية ذات الفعالية المحدودة ، ومن الواضح أن الجيل الإسلامى الوسيط فى الآخوان وغيرهم تتنامى لديه قناعة نبذ العنف ، لانه مارس العمل السياسى النقابى ووجد فيه فرصة للتعبير سياسياً .

---

[1] أنظر " الإسلامية والسياسة والمجتمع الأهلى " كمال السعيد حبيب نقلا عن أمانى قنديل تقييم أداء الإسلاميين فى النقابات المهنية " الندوة المصرية الفرنسية الخامسة نوفمبر عام ١٩٩٣ م مركز البحوث والدراسات السياسة / جماعة القاهرة .

ثالثاً : الإنخراط فى نضال سلمى مع قواعد المجتمع الأهلى من قبل القائمين على الجمعيات الأهلية ، بحيث يتم إشاعة ثقافة المبادأة والمشاركة بين الجماهير وخاصة فيما يتصل بقطاع الشباب ، فالإحصائيات تشير إلى أن ٦٦,٥% من أبناء هذا الوطن أقل من ٣٠ سنة ، وأن الشباب هم أكثر الفئات انخراطا فى العنف ، ومن ثم فتشجيع أشتراكهم فى مؤسسات المجتمع الأهلى سوف يقيمهم الانخراط فى العنف ، ويعودهم على العمل السياسى الاجتماعى.

هذا ما تيسر لنا نقله من هذه الرؤية فى هذا الصدد ، ويمكن للمعنيين أن ينظروا فى بقية عناصرها فقد يفيدون منها ، وقد يعترضون ، وفى كل الأحوال فإن الذى لا ينبغى أن يغيب عن الأذهان وما نريد أن نركز عليه هو عدم إهمال الدين أو تحييده فى أى مشروع كبيرا كان أو صغيرا ولعل بعض السطحيين يظن أن تطبيق الشريعة الإسلامية - قديما أو حديثا يرتبط بدولة أو مجتمع ملائكى ، ويتبع ذلك - فى رأيهم - أن هذا التطبيق عبارة عن مفتاح سحرى ووسيلة للقضاء على أى مشكلة ترتبط بالنواحى المادية والغرائزية فلا تبقى حينئذ أى مشكلة ونقول إن هذا يصح ويجوز فقط بالنسبة لقلة ذات فطرة واستعداد معينين ، ولكن هل المجتمع البشرى كله كذلك ؟ وإذا كانت الإجابة بالنفى ، فإننا يمكن أن نقرر وحسب الواقع ، بل وفى خير القرون [1] أن المجموع البشرى يعيش الصراع الداخلى ، فى أى زمان وفى أى مكان بين الخير والشر . ويخلط العمل الصالح بغير الصالح ، بيد أن هناك ضمانتين استحق بهما هذا - المجتمع وهذا التاريخ ويمكن أن يستحق بهما أى مجتمع وأى تاريخ - أن يكونا تاريخا ومجتمعا إسلاميا " وهاتان الضمانتان ترتفعان بهذا المجتمع عن مستوى أى مجتمع آخر .

---

[1] يروى الأمام البخارى ومسلم وغيرهما بسندهما أن رسول الله -ﷺ- قال " خير القرون قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ، ثم يجئ أقوام تسبق شهادة أحدهم يمينه ويمينه شهادته . البخارى ٣/٢٢٤ و ٨/١١٣ ، ومسلم فضائل الصحابة ز٥٢ رقم ٢١٢ ومسند أحمد ٤/٢٧٦ ، والمعجم الكبير للطبرانى ٢/٣٢٠

الضمانة الأولي : الارتباط بالأصلين الشريفين الثابتين - الكتاب والسنة ، وعدم تحريفهما عن موضعهما بتأثير سلطة فوقية عقدية (بابوية) أو سلطة عسكرية ، أو سياسية حاكمة ، فهذان الأصلان فوق عبث العابثين وجبروت المتجبرين ، وهذه هى الضمانة الأولى التى انبثق عنها فى مجال التطبيق والفكر معا - أن أصبح محمد -ﷺ- صاحب السنة القولية والفعلية - هو الإمام النموذج ، وعلى المسلمين إن كانوا حقا مسلمين - أن يجتهدوا فى أن يرتفعوا بحياتهم فى كل المجالات لتقترب من موضع هذا النبى (القدوة العملية والقرآن المتحرك الحى) وقد عاش -ﷺ- كل أطوار الواقع البشرى بحيث يمكننا أن نقول بإيجاز -انه قدم شخصية واضحة كل الوضوح ,تجمع بين البشرية والنبوة فتهتدى بالنبوة ,ولكن تبقى النبوة فى دائرة العصمة التى لايطالب الناس بها وتصبح البشرية المهتدية بالنبوة مجالا اللاقتداء والسباق بين الناس".

أما الضمانة الأخرى لكى يصدق وصف " الإسلامى " على المجتمع أى مجتمع الضمانة الأخرى - هى الرأى العام الذى يبقى فى ضوء فطرته التى امتزجت بالشريعة يبقى فى كل الأحوال متمسكا بالثوابت . وفى القمة التى يندرج تحتها ويتبعها ماعداها " الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر " يبقى الرأى العام فى هذا المجتمع آمرا بالمعروف منكراً للمنكر , مهما كان السلوك مغلوطاً , ومهما كان ضغط بعض الحكام الاوضاع , وبعض دعاة الافساد.

فالمجتمع المسلم لكى يبقى مسلما فإنه يتمسك بالأمر بالمعروف وبالنهى عن المنكر ومن ثم فانه ينكر الزنا , والخمر . والربا الاستغلال , والشذوذ الجنسى ، والانحراف الخلقى ولا يسمح , ولم يسمح قط - فى عرفه أو إجماعه - بإباحة شىء مما أباحته بعض الحضارات وأخرها الحضارة الغربية التى تبيح الزنا والربا والخمور , والتعرقة العنصرية واستنزاف ثروات -الشعوب والكذب على أنبياء الله , واستنجار بعض المزيفين من أبناء الحضارة المقلوبة "[1] "لقد كان هذا الرأى العام المسلم (

---

[1] راجع الشريعة الإسلامية ومكانتها فى تاريخ المجتمع الإسلامى د\ عبد الحليم عويس-مجلة المنار الجديد عدد٦ذوالحجة ١٤١٩ص ٤٢ومابعدها

ضمانه طبيعية) تعصم المسلمين من التفرق الفكرى , والعقدى ، والتشريعى ومن الضلال الأخلاقى بصفة عامة- مهما أستبد الجهل بالمسلمين وكان من نتيجة هذا الرأى العام المسلم أن المسلمين الأوائل لم يقلدوا كل داعية. كما تفعل المجتمعات الغربية – وإنما اختاروا من بين مئات الدعاة وعشرات المجتهدين عددا محصوراً أو لوهم الثقة , وانتظموا وراءهم . ونظموا , ولم يسمحوا بمجال للفوضى "[١]

وفى ظل الثوابت والإجماع والحس الإسلامى العام انطلقت الأمة الإسلامية فى رحلة صانعة تاريخها وحضارتها , تواجه كل عصر بما تحتاج إليه تحدياته وتزودها الثوابت بالأسلحة ويحكم حركتها الرأى العام وكانت تفرق دائما بين مجالى النص , والرأى والشريعة والفقه ما يقبل الاجتهاد ومالا يقبله.... ومعلوم أن التطبيق إنما يأتى تلبية للواقع العملى [٢].

فى هذا الإطار ينبغى أن يسير المجتمع الإسلامى بأى مجتمع – ليحقق تنمية حقيقية يسعد بها فى الأولى وينتظر رضوان من الله اكبر فى الأخرى ...

وأخيراً – وليس أخرا – لا ينبغى ألا يعيب عن ذهن القارئ الكريم أننا أردنا بالحديث عن هذا الموضوع – على قدر ما أدى إليه الاجتهاد- أردنا أن تلقت النظر إلى انه ينبغى للمسلم فردا أن مجتمعا أن يستدعى الإسلام فى كل ما يتعلق به إذا أراد أن يكون فردا مسلماً أو مجتمعاً مسلماً يستدعى الإسلام بالطريقة التى المحنا إليها أعنى فى إطار الضمانتين سالفتى الذكر – حينئذ يمكن أن تكتب الحياة الحقيقية للفرد أو المجتمع كما قال تعالى " يا أيها الذين أمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم "[٣]

وحينئذ تكتب له الهداية ويتقى الضلال والشقاء فردا كان أو مجتمعاً "فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى " [٤] وفضلا عن ذلك وتبعا وللاستمساك بالهدى

---

[١] المرجع الساق نقلا عن حسن الترابى تجديد الفكر الإسلامى ص٥٨

[٢] مرجع ساق مجلة المنار الجديد.

[٣] سورة الأنفال الآية :٢٤

[٤] سورة طه الآية :١٢٣

الربانى الكريم تكون البركات من السماء والأرض التى تتحقق بها التنمية الحقيقية التى هى الوجه الأساسى للتمكين فى الأرض- " ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض "[١]والحديث الذى يروى عن رسول صلى الله عليه وسلم - ومعناه -" إقامة حد من حدود الله فى الأرض اعظم بركة من أن تمطر السماء أربعين يوما "[٢]ولهذا فإن المعول عليه فى تحقيق التنمية ومباركة الله لها لتؤتى ثمارها الربانية المعول عليه تقوى الله وطاعته وتطبيق شريعته الأخذ بهديه ,"[٣]وهى كلمة نختم بها هذا البحث الذى أرجو أن تكون صرخة فى أذن كل مسئول وكل فرد من أفراد الرعية لا فى مصرنا الحبيب فقط ولكن فى كل أرجاء العالم الإسلامى بخاصة وأنحاء العلم بعامة إذا أرادوا تنمية حقيقية يباركها اله تعالى وتؤتى أكلها فليهرعوا إلى الإسلام , وليذكروا الله كثيرا بعد أن يأخذوا بالأسباب المادية - كما أشارت بعض الآيات على سبيل المثال-.

إلى أن شان المسلم الأخذ بالأسباب المشروعة والجد والاجتهاد فى طلب الرزق بقيامه بعمله تاجرا أو زارعا أو صانعا - .... الخ - وكل هذا تتسع له الأرض التى جعلها الله ذلولا - كما قال تعالى " هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقى واليه النشور "[١]وحين يمشون فى الأرض آخذين بالأسباب عليهم أن يذكروا انهم ليسوا اصلاء فى الكون وانهم عائدون إلى الله الذى سيبعثهم للحساب وإليه النشور فلابد أن يؤدوا عملا صالحا يرضاه الله ؛ حينئذ يكون الفلاح

---

(١) سورة الاعراف الاية :٩٦

(٢) تخريج الحديث جاء بمعناه سنن ابن ماجه ٢٥٣٧/١طا لحلبى والمعجم الصغير اللطمرانى ٧٢١٢-ط الشلعية جاء ينص اقامه حد من حدود الله خير من مطر أربعين ليلة)

(٣) ذكر "روحية جارودى فى كتابه أمريكا طليعة الانحطاط " أن التنمية على الطريقة الغربية لن تحل شيئا من مشكلاتنا الحيوية " ومفهوم المخالفة أن التنمية على الطريقة الإسلامية هى التى تحل المشكلات لأنها تستلهم الوحى المعصوم- كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم " تركت فيكم ما أن تمسكتم به لن تضلوا بعدى أبدا كتاب الله وسنتى " تخريج الحديث.

المطلق الذى نصت علية الآية الكريمة فى قوله جل وعلا " يا أيها الذيـــن أمنـــوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم ان كنتـــم تعلمون فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضـــل الله واذكـــروا الله كثيرا لعلكم تفلحون "[١]

والحمد لله فى النهاية ؛ كما حمدناه فى البداية . وصلى الله على معلم النـــاس الخير سيدنا محمد النبى الأمى وعلى آله وصحبه وسلم كتبه راجى عفو ربه الكريم .

أ.د/ هاشم عبد الظاهر إبراهيم

أستاذ الدعوة والثقافة الإسلامية

عميد كلية الدراسات

الإسلامية والعربية بقنا -جامعة الأزهر

---

[١] سورة الجمعة الآية :١٠